تفسير سورة المجادلة

د/ أحمد عبد الحميد محمد أحمد
مدرس التفسير وعلوم القرآن في الكلية

المقدمة

إنَّ الحمدَ للهِ نَحْمَدُهُ ونستعينه ونستغفره، ونعوذ بالله – تعالى – من شرور أنفسنا وسيئات أعمالنا، من يَهْدِ اللهُ فلا مضلَّ له، ومن يُضْلِلْ فلا هادي له

وأشهد أنْ لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أنَّ محمداً عبده ورسوله

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِۦ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ ﴾ [١]

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمُ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالاً كَثِيرًا وَنِسَآءً ۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ٱلَّذِى تَسَآءَلُونَ بِهِۦ وَٱلْأَرْحَامَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا ﴾ [٢]

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَقُولُواْ قَوْلاً سَدِيدًا * يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَٰلَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ ۗ وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا ﴾ [٣]

أمَّـــا بعـــدُ

فإنَّ خيرَ الحديث كتابُ الله، وخيرَ الهَدى هُدَى محمدٍ – ﷺ – وشرَّ الأُمور مُحْدَثاتُها، وكلَّ بدعةٍ ضلالةٌ . [٤]

مَن يُرِدِ اللهُ به خيراً يُفَقِّهْهُ في الدين . [٥]

---

١ – سورة آل عمران آية ١٠٢

٢ – سورة النساء آية ١

٣ – سورة الأحزاب آية ٧٠، ٧١

٤ – جزء من حديث رواه مسلم – واللفظ له – مرفوعاً من طريق جابر بن عبد الله في كتاب: الجمعة، باب: تخفيف الصلاة والخطبة . انظر: صحيح مسلم بشرح النووي جـ ٣ ص ٤١٨ ط دار الحديث – القاهرة .

٥ – جزء من حديث رواه البخاري من طريق معاوية بن أبي سفيان في كتاب: العلم، باب: من يرد الله به خيراً يفقهه في الدين . انظر: فتح الباري جـ ١ ص ١٩٧

اللهمَّ فقِّهْنا في الدين، وعلِّمْنَا التأويل يا ربَّ العالمين .

إن القرآن الكريم منذ نزوله على النبي - ﷺ- إلى الآن وهو محطُّ قلوب وعقول المؤمنين ينهلون من فيضه، ويجتهدون في تلاوته آناء الليل وأطراف النهار.

وقد أمر الله عباده بالتفكر في هذا القرآن والتدبر في معانيه" أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ "[1]

والنظر فيما ما تحمله ألفاظه من معانٍ لا يدرك دقائقها إلا أهل الفهم السليم " وَتِلْكَ ٱلْأَمْثَالُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ ۖ وَمَا يَعْقِلُهَآ إِلَّا ٱلْعَٰلِمُونَ "[2]

ولقد كان الصحابة - ﷺ- جديرين بهذه المنزلة الرفيعة من التدبر في كتاب الله - ﷻ- فرأينا منهم حبر القرآن ابن عباس - رضي الله عنهما - وغيره من الصحابة الذين كان لهم باعٌ في تفسير القرآن، ثم تَبِعهم أتباعُهم فأخذوا علمهم وبلغوه لمن أتى بعدهم إلى يومنا هذا.

حتى نشأ التفسير بالرأي فوجدنا جيلاً كاملاً من المسلمين يتسابق في ميدان تفسير القرآن وتيسير معانيه للخاصة والعامة كلٌ على قدر فهمه وما آتاه الله - ﷻ- إياه من أدوات الفهم والاجتهاد.

وإذا كان تفسير القرآن يعني تيسير معانيه للعامة فإن القرآن الكريم - على ذلك - يحتاج إلى تفسير جديد بأسلوب مختلفٍ لأهل كل زمان ومكان، وذلك لاختلاف أفهام الناس بسبب بُعدهم عن لغة القرآن وصعوبة فهمهم لأمهات التفاسير القديمة.

ولا يعني ذلك مخالفة الحديث للقديم وإنما يعني تبسيط معانيه حتى تكون في متناول أفهام العامة.

كما أن ما جدَّ من علوم وما تغيَّر من أحوال الناس يستدعي من علماء التفسير أن يجتهدوا في تفسير كتاب الله - ﷻ- حتى يُظهروا مواكبة القرآن لكل زمان ومكان.

---

١ - النساء ٨٢

٢ - العنكبوت ٤٣

لذا فالحاجة إلى التفسير التحليلي مآسة في كل زمان ومكان لا سيما في زماننا هذا الذي اختلفت فيه أفهام الناس وصار العلمُ بالدين مهنةَ مَن لا مهنة له، ورأينا كثيراً من الناس يتحدثون في صنوف العلم بغير علم أو أدني فهم.

أقسام البحث:

وقد قسمتُ بحثي هذا إلى:

١- **مقدمة:** فيها بيان لخطة البحث وأقسامه.

٢- **تمهيد:** ذكرت فيه:

اسمها، ومكان نزولها، ترتيب نزولها، عدد آياتها، ووجه مناسبتها لما سبقها وما تلاها من السور، مقاصد السورة الكريمة.

٣- **خاتمة:** ذكرتُ فيها أهم نتائج البحث.

٤- جانب التفسير التحليلي للسورة الكريمة في عدَّة مطالب.

منهج البحث:

وسوف يكون منهجي فيه - بإذن الله - ﷻ- كالتالي:

١- أذكر الآية أو المجموعة من الآيات تحت عنوان يدل على مضمونها.

٢- أقوم بشرح كل لفظ من الآيات الكريمة يحتاج إلى شرح وذلك من معاجم اللغة، ودواوين الشِعْر.

٣- أذكر أقوال العلماء واختلافاتهم في تفسير الآيات وفقهها ونحوها وما فيها من قراءاتٍ من كتب كل علم منها، مع الترجيح فيما يحتاج إلى ترجيح من أقوال العلماء.

٤- قمتُ بِذكر ترجمة لغالب الأعلام المذكورين في البحث وذلك على قَدْر الحاجة.

٥- أقوم بنسبة الآيات إلى سُوَرها، والأحاديث إلى ما رُوِيَتْ فيه من كتب السُنَّة مُخَرِّجاً إياها على الكتب والأبواب، كما أقوم بنسبة الأشعار إلى قائليها، والتخريج من كتب اللغة على مادة الكلمة.

التمهيد

سوف أذكر – إن شاء الله تعالى– في هذا التمهيد الموجز بعض الأمور المتعلقة بالسورة الكريمة من حيث اسمها، ومكان نزولها، ترتيب نزولها، عدد آياتها، ووجه مناسبتها لما سبقها وما تلاها من السور، مقاصد السورة الكريمة، فأقول – وبالله التوفيق –:

أولاً: اسم السورة:

الحكمة من التسميةِ تمييزُ الشيء حتى يتميز عن غيره من الأشياء المشابهة له في نوعه، لذا سمَّى اللهُ – ﷻ– كل شيء باسم مميِّزٍ له عن غيره " وَعَلَّمَ ءَادَمَ ٱلْأَسْمَآءَ كُلَّهَا ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ فَقَالَ أَنۢبِـُٔونِى بِأَسْمَآءِ هَٰٓؤُلَآءِ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ " [١]

واسم الشيء ليس مجرد لفظ يُطلق عليه للتمييز فقط دون حكمة، فلا بد وأن يكون الاسم مستنبطاً من حقيقة هذا الشيء دآلاً علي حقيقته.

قال ابن القيم – رحمه الله – " لما كانت الأسماء قوالب للمعاني، ودالةً عليها، اقتضت الحكمة أن يكون بينها وبينها ارتباطٌ وتناسبٌ، وأن لا يكون المعنى معها بمنزلة الأجنبي المحض الذي لا تعلّق له بها، فإن حكمة الحكيم تأبى ذلك، والواقع يشهد بخلافه، بل للأسماء تأثيرٌ في المسميات، وللمسميات تأثّر عن أسمائها في الحسن والقبح، والخفة والثقل، واللطافة والكثافة، كما قيل:

وقلما أبصرت عيناك ذا لقبٍ * إلا ومعناه إن فكرت في لقبه

ولما كان بين الأسماء والمسميات من الارتباط والتناسب والقرابة، ما بين قوالب الأشياء وحقائقها، وما بين الأرواح والأجسام، عبر العقل من كل منهما إلى الآخر، كما

---

١ – البقرة ٣١

كان إياس بن معاوية وغيره يرى الشخص، فيقول: ينبغي أن يكون اسمه كيت وكيت، فلا يكاد يخطئ، وضدّ هذا العبور من الاسم إلى مسماه " [١] انتهى.

وكل سورة من القرآن لها اسم يميزها، وللعلماء في تعليل أسماء السور كلام كثير أذكر منه كلام إمامنا الزركشي [٢] – رحمه الله – حيث قال: " ينبغي النظر في وجه اختصاص كل سورة بما سميت به، ولا شك أن العرب تراعى في الكثير من المسميات أخذ أسمائها من نادرٍ أو مستغرَبٍ يكون في الشيء من خَلْقٍ أو صفة تخصه، أو تكون معه أحكم أو أكثر أو أسبق لإدراك الرائي للمسمى، ويسمون الجملة من الكلام أو القصيدة الطويلة بما هو أشهر فيها وعلى ذلك جرت أسماء سور الكتاب العزيز كتسمية سورة البقرة بهذا الاسم لقرينه ذكر قصة البقرة المذكورة فيها وعجيبِ الحكمة فيها، وسميت سورة النساء بهذا الاسم لما تردد فيها من كثير من أحكام النساء، وتسمية سورة الأنعام لما ورد فيها من تفصيل أحوالها، وإن كان قد ورد لفظ الأنعام في غيرها إلا أن التفصيل الوارد في قوله تعالى " وَمِنَ ٱلْأَنْعَـٰمِ حَمُولَةً وَفَرْشًا " إلى قوله " أَمْ كُنتُمْ شُهَدَآءَ " [٣] لم يرد في غيرها، كما ورد ذكر النساء في سور إلا أن ما تكرر وبسط من أحكامهن لم يرد في غير سورة النساء وكذا سورة المائدة لم يرد ذكر المائدة في غيرها فسميت بما يخصها " [٤]

---

١ – زاد المعاد في هدي خير العباد فصل في هديه ﷺ في الأسماء والكنى جـ٢ ص ٣٠٧ ط مؤسسة الرسالة ط ثالثة ١٤١٨ه – ١٩٩٨ م حقق نصوصه وخرج أحاديثه شعيب الأرنؤوط – عبد القادر الأرنؤوط.

٢ – هو محمد بن عبد الله بن بهادِر بدرُ الدين أبو عبد الله المصري الزركشي، وُلِدَ سنة خمس وأربعين وسبعمائة، أخذ عن الإسنوي وابن كثير والأذرعي والسراج البلقيني، ورحل إلى حَلَب وسمع الحديث، وكان فقيهاً أصولياً مفسراً أديباً فاضلاً، ودرَّس وأفتى وكان منقطعاً إلى الاشتغال بالعلم لا يشتغل عنه بشيء، وكان له أقارب يكفونه أمر دنياه، توفي سنة أربع وتسعين وسبعمائة ٠

من تصانيفه: شرح المنهاج – البحر في الأصول – البرهان في علوم القرآن ٠

انظر: طبقات المفسرين للداوودي جـ ٢ ص ١٦٢ ط دار الكتب العلمية – بيروت ٠

٣ – الأنعام ١٤٢ – ١٤٣ – ١٤٤

٤ – البرهان للزركشي: النوع الرابع عشر " معرفة تقسيمه بحسب سوره... " – خاتمة في اختصاص كل سورة بما سميت به جـ ١ ص ٢٧٠

وأسماء السور توقيفي ثبت عن النبي – ﷺ– كما ذُكر. [١]

اسم السورة – محل البحث –: " المجادلة "

سمّيت سورة المجادلة، لقوله " تُجَادِلُكَ فِي زَوْجِهَا "، واسمها المجادِلة أو المجادَلة بكسر الدال وفتحها، وتسمى أيضاً سورة " قَدْ سَمِعَ "، ورجح ابن عاشور – رحمه الله – كسر الدال، ووجَّه ذلك بأن السورة افتتحت بذكر التي تجادل في زوجها فحقيقة أن تضاف إلى صاحبة الجدال.[٢] انتهى.

وقد يقول قائل: لِمَ لَمْ تسم سورة الظهار مثلاً، على اعتبار أن الظهار هو القضية التي ثار الجدال بشأنها ؟

أقول – والله أعلم –: إن الجدال هنا كان هو الأظهر في هذه القضية، ذلك أن الظهار كان معروفاً أيام الجاهلية بأحكامه المختلفة – على ما سيأتي – لكن الجدال هنا كان لطلب حكمٍ شرعي يخالف أحكام الظهار المعروفة، فصار الأمر وكأنه حديث جديد عن ظهار مختلف، فلما حدث جدال في أمره صار الجدال هو القضية الكبرى في السورة الكريمة إذ لم يسبق في شأن الظهار جدالٌ من قبل، والله أعلم.

وقد سماها بعض الصحابة – ﷺ– سورة الظهار كما ورد أن أُبيَّ بن كعب – ﷺ– سماها كذلك في مصحفه. [٣]

---

١ – الإتقان للسيوطي جـ ١ ص ١١٥

٢ – انظر: التحرير والتنوير للطاهر بن عاشور جـ ٢٨ ص ٥، بصائر ذوي التمييز في لطائف الكتاب العزيز لمجد الدين يعقوب الفيروزآبادي" بصيرة فى.. قد سمع " تحقيق / محمد علي النجار جـ ١ ص ٤٥٦ ط وزارة الأوقاف المصرية – المجلس الأعلى للشئون الإسلامية – لجنة إحياء التراث العربي ط ثالثة ١٤١٦ هـ – ١٩٩٦ م

٣ – انظر: التحرير والتنوير للطاهر بن عاشور جـ ٢٨ ص ٥

ثانياً: مكان نزولها:

سورة المجادلة مدنيّة بالاتِّفاق.[١]

ونُقِلَ عن عطاء [٢] – رحمه الله – قوله إن العشر الأُول فقط نزلن بالمدينة والباقي مكيّ.

وقال الكلبي [٣] – رحمه الله – إنها مدنية ما عدا قوله " مَا يَكُونُ مِن نَّجْوَىٰ ثَلَٰثَةٍ إِلَّا هُوَ رَابِعُهُمْ " [٤] فإنها نزلت بمكة. [٥]

ثالثاً: ترتيب نزولها:

هذه السورة هي المائة وثلاث في عداد نزول سور القرآن، نزلت بعد المنافقين وقبل سورة التحريم. [٦]

---

١ – بصائر ذوي التمييز في لطائف الكتاب العزيز لمجد الدين يعقوب الفيروزآبادي جـ ١ ص ٤٥٦، تفسير لباب التأول في معاني التنزيل لعلي بن محمد الشهير بالخازن جـ ٤ ص ٤٥٥ ط دار الكتب العلمية – بيروت

٢ – هو عطاء بن أبى رباح واسمه أسلم القرشي مولاهم أبو بكر محمد المكي روى عن ابن عباس وابن عمر والزبير وغيرهم كثير كان من مولدي الجند ونشأ بمكة وهو مولى لبنى فهروالجمح انتهت إليه فتوى أهل مكة مات سنة مائة وأربعة عشر. انظر تهذيب التهذيب جـ ٥ ص ٥٦٧

٣ – هو محمد بن السائب بن بِشْر الكلبي، النَّسابة المفسر، روى عن الشعبي وجماعة، له تفسير مشهور، وناسخ القرآن ومنسوخه، أخرج له أبو داود في المراسيل، والترمذي وابن ماجة في التفسير، اتُّهِمَ بالكذب ورُمِيَ بالرفض ومات سنة ستٍ وأربعين ومائة .

انظر ترجمته في: طبقات المفسرين للداودي جـ ٢ ص ١٤٩

٤ – المجادلة ٧

٥ – النكت والعيون للماوردي جـ ٣ ص ٤٨٧، اللباب في علوم الكتاب لعمر ابن عادل الحنبلي جـ ١٨ ص ٥١٣ ط دار الكتب العلمية – بيروت ط أولى ١٤١٩ هـ – ١٩٩٨ م تحقيق وتعليق: عادل أحمد عبد الموجود – علي محمد معوض

٦ – انظر: التحرير والتنوير للطاهر بن عاشور جـ ٢٨ ص ٦

رابعاً: عدد آياتها:

آياتها اثنتان وعشرون عند الجمهور، وإحدى وعشرون عند المكيِّين، اختلفوا في آية " فِي ٱلْأَذَلِّينَ " [١] بعضهم عدَّها آية ولم يعدها البعض الآخر. [٢]

فائدة:

بيان حقيقة اختلاف العلماء في عدد آيات القرآن وسوره.

مما ينبغي علينا أن نعلمه أنَّ اختلاف العلماء في عدد آيات القرآن وسوره ليس معناه أن بعضهم زاد على الآخر أو انتقص ألفاظاً من السورة، وإنما الاختلاف مردُّه إلى اختلافهم في مواقف الآيات أو غير ذلك، فكلهم مجمعون على ألفاظ القرآن دون زيادة أو نقص.

يقول الزركشي – رحمه الله – عن أسباب هذا الاختلاف: " واعلم أن سبب اختلاف العلماء في عد الآى والكلم والحروف أن النبي – ﷺ – كان يقف على رءوس الآى للتوقيف، فإذا عُلِمَ محلها وصل للتمام، فيحسب السامع أنها ليست فاصلة، وأيضا البسملة نزلت مع السورة في بعض الأحرف السبعة فمن قرأ بحرف نزلت فيه عدها ومن قرأ بغير ذلك لم يعدها " [٣] انتهى.

ويذكر الفيروزآباي [٤] – رحمه الله – بعضاً من أمثلة هذا الاختلاف فيقول:" اعلم أنَّ عدد سور القرآن – بالاتِّفاق – مائة وأربعة عشر سورة، وأمّا عدد الآيات فإن صدر

---

١ – المجادلة ٢٠

٢ – بصائر ذوي التمييز في لطائف الكتاب العزيز لمجد الدين يعقوب الفيروزآبادي جـ ١ ص ٤٥٦، البيان في عدد آي القرآن لأبي عمرو الداني الأندلسي ٤٤٤ هـ ص ٢٤٢ ط مركز المخطوطات والتراث والوثائق – الكويت ط أولى ١٤١٤ هـ ١٩٩٤ م تحقيق د/ غانم قدوري الحمد

٣ – البرهان للزركشي جـ ١ ص ٢٥١

٤ – هو مجد الدين محمد بن يعقوب الشيرازي الفيروزآبادي، ولد سنة تسع وعشرين وسبعمائة، دخل بغداد ودمشق والقدس والقاهرة وغيرها من البلاد، ولقى ملوكها وأكابرها ونال رِفْعة ووجاهة، وأخذ اللغة والأدب عن والده وغيره من علماء شيراز، مات سنة سبع عشرة وثمانمائة . انظر ترجمته في: طبقات المفسرين للداوودي جـ ٢ ص ٢٧٥

الأُمّة وأئمة السّلف من العلماءِ والقراءِ كانوا ذوى عنايةٍ شديدة في باب القرآن وعِلمــه، حتى لم يبق لفظٌ ومعنىً إلاّ بحثوا عنه، حتى الآيات والكلمات والحروف، فإنهم حَصَــروها وعدُّوها، وبين القرّاءِ في ذلك اختلافٌ، لكنّه لفظي لا حقيقي.

مثال ذلك أنَّ قرّاءَ الكوفة عدُّوا قوله " وَٱلْقُرْءَانِ ذِى ٱلذِّكْرِ " [١] آية، والباقون لــم يعدّوها آية، وقراء الكوفة عدّوا " قَالَ فَٱلْحَقُّ وَٱلْحَقَّ أَقُولُ " [٢] آية والباقون لم يعدّوها بل جعلوا آخر الآيــة [٣] " فِى عِزَّةٍ وَشِقَاقٍ " [٤] و " لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنكَ وَمِمَّن تَبِعَكَ مِنْهُمْ أَجْمَعِينَ " [٥] وهكذا عدَّ أهلُ مكّة والمدينة والكوفة والشّام آخر الآية " وَٱلشَّيَـٰطِينَ كُلَّ بَنَّآءٍ وَغَوَّاصٍ " [٦] ، وأهل البصرة جعلوا آخرها " وَءَاخَرِينَ مُقَرَّنِينَ فِى ٱلْأَصْفَادِ " [٧].

ومن هاهنا صار عند بعضهم آيات القرآن أكثر، وعند بعضهم أقلّ، لا أن بعضــهم يزيد فيه، وبعضهم ينقص، فإنَّ الزّيادة والنّقصان في القرآن كفر ونفاق، على أنّــه غيــر مقدور للبشر، قال تعالى " إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا ٱلذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَـٰفِظُونَ " [٨]

فإذا علمت هذه القاعدة في الآيات فكذلك الأمر في الكلمات والحروف، فإنَّ بعــض القرّاءِ عدّ " فِى ٱلسَّمَآءِ " و " فِى ٱلْأَرْضِ " و " فِى خَلْقٍ " وأمثالَها كلمتين، علــى أنَّ " فِى " كلمةٌ، و " ٱلسَّمَآءِ " كلمة، وبعضهم عدّهما كلمة واحدةً فمن ذلك حصل الاخــتلاف؛ لأنَّ مَن عدّ " فِى ٱلسَّمَآءِ " وأمثاله كلمتين كانت كلمات القرآن عنده أكثر.

---

١ – ص ١

٢ – ص ٨٤

٣ – أي آية سورة " ص" الأولى.

٤ – ص ٢

٥ – ص ٨٥

٦ – ص ٣٧

٧ – ص ٣٨

٨ – الحجر ٩

وأما الحروف فإن بعض القراءِ عدّ الحرف المشدّد حرفين فيكون على هذا القرآن عنده أكثر " [١] انتهى.

خامساً: وجه مناسبتها لما سبقها وما تلاها من السور:

فائدة:

من الأمور المهمة التي بيَّنها العلماء وجوه التناسب بين سور القرآن وقبل أن أذكر مناسبة السورة الكريمة – محل البحث – لما سبقها وما تلاها أودُّ أن أبين هنا أقوال العلماء – بإيجاز – في ترتيب السور هل كان بتوقيف من النبي – ﷺ – أم باجتهاد من الصحابة ﷺ.

وبيان ذلك كالتالي: اختلف العلماء في ترتيب السور هل هو توقيفي أم توفيقي، وقد أفاض العلماء في ذكر هذه الأقوال وأدلتها، وقد رجح كثير منهم القول بأن ترتيب السور توقيفي من عند الله ﷻ.

يقول الزركشي " لترتيب وضع السور في المصحف أسباب تطلع على أنه توقيفي صادر عن حكيم أحدها: بحسب الحروف كما في الحواميم، وثانيها: لموافقة أول السورة لآخر ما قبلها كآخر الحمد في المعنى وأول البقرة، وثالثها: للوزن في اللفظ كآخر تبت وأول الإخلاص، ورابعها: لمشابهة جملة السورة لجملة الأخرى مثل والضحى وألم نشرح، قال بعض الأئمة وسورة الفاتحة تضمنت الإقرار بالربوبية والالتجاء إليه في دين الإسلام والصيانة عن دين اليهودية والنصرانية وسورة البقرة تضمنت قواعد الدين وآل عمران مكملة لمقصودها فالبقرة بمنزلة إقامة الدليل على الحكم وآل عمران بمنزلة الجواب عن شبهات الخصوم " [٢] انتهى.

ويقول السيوطي [٣] " وما يدل على أنه توقيفي كون الحواميم رتبت ولاءً، وكذا

---

١ – بصائر ذوي التمييز في لطائف الكتاب العزيز للفيروزآبادي جـ ١ ص ٥٥٨ – ٥٥٩

٢ – البرهان للزركشي جـ ١ ص ٢٦٠

٣ – هو عبد الرحمن بن أبي بكر بن محمد الخضيري الأصل المصري الشافعي، ولد سنة تسع وأربعين وثمانمائة، ونشأ بالقاهرة، وقرأ على جماعة من العلماء، ولما بلغ أربعين سنة اعتزل الناس وخلا بنفسه في روضة المقياس على النيل فألف أكثر كتبه، وتوفي سنة إحدى عشرة وتسعمائة ٠ من مؤلفاته الكثيرة: الدر المنثور في التفسير بالمأثور – حسن المحاضرة في أخبار مصر والقاهرة ٠ انظر ترجمته في: معجم المؤلفين لعمر كحالة جـ ٥ ص ١٢٨ ٠

الطواسين، ولم ترتب المسبحات ولاءً بل فصل بين سورها، وفصل بين "طسّمّ" الشعراء "طسّمّ" القصص بـ "طسّ" مع أنها أقصر منهما، ولو كان الترتيب اجتهادياً لـذكرت المسبحات ولاءً وأُخرت "طسّ" عن القصص، والذي ينشرح له الصدر أن جميع السور تزتيبها توقيفي إلا براءة والأنفال، ولا ينبغي أن يستدل بقراءته – ﷺ– سوراً ولاءً على أن ترتيبها كذلك، وحينئذ فلا يرد حديث قراءته النساء قبل آل عمران، لأن ترتيب السور في القراء ليس بواجب، ولعله فعل ذلك لبيان الجواز "[١] انتهى.

وذهب لذلك من العلماء أبو جعفر الغرناطي حيث ذكر أقوالهم ثم رجح هذا القول ومن وجوه استدلاله على هذا القول أن الصحابة – ﷺ– قد ارتضوا هذا الترتيب جيلاً بعد جيل منذ الصدر الأول، ومنها التناسب البارع والارتباط المحكم والائتلاف البديع بين جُمل القرآن وآيه وسوره والذي ينتهي إلى حد الإعجاز الأكبر هو دليلٌ على أنه نزل من اللوح المحفوظ كذلك.[٢] انتهى بتصرف.

والقول بالتوقيف في ترتيب السور هو القول الأوجه، ذلك أن القرآن الكريم كلٌ لا يتجزأ، بعضه موصول ببعضٍ، فنجد بين سوره وآياته ترابطاً هو في حد ذاته وجهٌ من وجوه إعجازه، يجعل القارئَ له يوقن بأنه ترتيب محكم لا يخرج من بشر.

فسور القرآن بينها تناسب في النظم يجعلها نسيجاً واحداً بعضه متصلٌ بعض، فتجد السورة تبيِّن وتفصل وتكمل ما جاء فيما سبقها، وكذلك يسير ما يليها من سور على نفس النهج، وهذا ما سيتبين لنا من خلال بيان وجه المناسبة بين سورة المجادلة – محل البحث – وسورة الحديد التي سبقتها وسورة الحشر التي تلتها.

---

١ – الإتقان للسيوطي جـ ١ ص ١٣٨

٢ – البرهان في ترتيب سور القرآن لأبي جعفر أحمد بن إبراهيم بن الزبير الغرناطي المتوفى ٧٠٨ هـ ص ٥٥ ط وزارة الأوقاف والشئون الإسلامية المغربية تحقيق / محمد شعباني ط ١٤١٠ هـ ١٩٩٠ م

مناسبة سورة المجادلة لما سبقها:

يقول الإمام البقاعي [١] – رحمه الله – " لما ختمت الحديدُ – بعد إثبات عجز الخلق [٢] – بعظيم الفضل له سبحانه [٣]، وكان سماع أصوات جميع الخلائق من غير أن يشغل صوتٌ عن صوتٍ وكلامٌ عن كلامٍ من الفضل العظيم، وكان قد تقدم ابتداع بعض المتعبدين من الرهبانية بما لم يصرح لهم بالإذن فيه [٤]، فكان سبباً للتضييع، وكان الظهار على نوعين: موقت ومطلق، وكان الموقت مما يدخل في الرهبانية لأنه من التبتل وتحريم ما أحل الله من الطيبات، وكان بعض الصحابة – ﷺ – قد منع نفسه بالموقت منه مما لم يأت عن الله، فظاهر من امرأته محافظة على كمال التعبد خوفاً من الجماع في نهار رمضان، وكان ذلك مما لم يأذن به بل نهى عنه، وكان بعض الصحابة – ﷺ – قد ظاهر مطلقاً فشكت امرأتُه ما لحقها من الضرر إلى رسول الله – ﷺ – وهتفت باسم الله، وكان علمه سبحانه بخصوص شكاية هذه المرأة المسكينة وإزالة ضررها بحكم عام لها ولغيرها من عباده حتى صارت واقعتها رخصة عامة للمسلمين إلى يوم القيامة معلماً بأنه ذو الفضل العظيم، وأنه الظاهر الباطن، ذو الملك كله، وكان قد أمر بالإيمان به وبرسوله ووعد على ذلك بالنور، كان السامع لذلك جديراً بتوقع البيان الذي هو النور في هذه الرهبانية التي ابتدعت في هذه الأمة، وتخفيف الشديد الذي وقع عن بعضهم ليعلم أهل الكتاب ما لهذه الأمة من الكرامة على ربها وأنه يختص برحمته من يشاء فقال " قَدْ

---

١ – هو برهان الدين إبراهيم بن عمر بن حسن الرُباط البقاعي الشافعي المحدث المفسر الإمام العلاّمة المؤرخ نزيل القاهرة ثم دمشق، ولد سنة تسع وثمانمائة بالبقاع ونشأ بها، أخذ عن أساطين عصره كابن حجر وابن ناصر الدين، وبرع وتميز وناظر وانتقد وصنّف تصانيف عديدة مِنْ اجلِّها: المناسبات القرآنية – عنوان الزمان بتراجم الشيوخ والأقران، ومات بدمشق سنة خمس وثمانين وثمانمائة انظر ترجمته في: شذرات الذهب جـ ٧ ص٣٣٩، معجم المؤلفين لعمر كحالة جـ ١ ص ٧١

٢ – يقصد قوله تعالى " لِّئَلَّا يَعْلَمَ أَهْلُ ٱلْكِتَٰبِ أَلَّا يَقْدِرُونَ عَلَىٰ شَىْءٍ مِّن فَضْلِ ٱللَّهِ " الحديد ٢٩

٣ – " وَأَنَّ ٱلْفَضْلَ بِيَدِ ٱللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَآءُ ۚ وَٱللَّهُ ذُو ٱلْفَضْلِ ٱلْعَظِيمِ " الحديد ٢٩

٤ – " وَرَهْبَانِيَّةً ٱبْتَدَعُوهَا مَا كَتَبْنَٰهَا عَلَيْهِمْ " الحديد ٢٧

سَمِعَ ٱللَّهُ قَوْلَ " [١] أي أجاب بعظيم فضله الذي أحاط بجميع صفات الكمال فوسع سمعه الأصوات " [٢] انتهى بتصرف.

يقول الألوسي [٣]: وذكر سبحانه " ألم تر أن الله يعلم..... " وهي تفصيل لإجمال قوله " وهو معكم... " وبذلك تعرف الحكمة في الفصل بها بين الحديد والحشر مع تواخيهما في الافتتاح بـ " سبح " [٤]

ومن أوجه التناسب بين سورتي المجادلة والحديد:

١- أن الله - ﷻ- قال في الحديد " هُوَ ٱلَّذِى يُنَزِّلُ عَلَىٰ عَبْدِهِۦٓ ءَايَٰتٍۭ بَيِّنَٰتٍ لِّيُخْرِجَكُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ ۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ بِكُمْ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ " [٥] فبيَّن أن الغرض من إنزال القرآن هو إخراج الناس من ظلمات الكفر وأحكام الجاهلية الجائرة إلى يُسْر الإسلام وأحكامه المتماشية مع طبيعة البشر وفطرة الله - ﷻ- التي فطرهم عليها، ثم لما بيَّن في المجادلة أحكامَ الظهار المخالفة لعادات الجاهلية قال في آخرها " ذَٰلِكَ لِتُؤْمِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ۚ وَتِلْكَ حُدُودُ ٱللَّهِ ۗ وَلِلْكَٰفِرِينَ عَذَابٌ أَلِيمٌ " [٦] ثم هدد المخالفين لأوامره فقال " إِنَّ ٱلَّذِينَ يُحَآدُّونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ

---

١ - المجادلة ١

٢ - نظم الدرر لأبي الحسن إبراهيم بن عمر البقاعي جـ ١٩ ص ٣٣٢، ٣٣٣ ط دار الكتاب الإسلامي - القاهرة

٣ - هو محمود بن عبد الله الحسيني الألوسي، ولد ببغداد سنة ١٢١٧ هجرية، تقلد إفتاء بغداد وعزل وسافر إلى القسطنطينية وأكرمه السلطان عبد الحميد، وعاد إلى بغداد وتوفي بها عام ١٢٧٠ هجرية، من تصانيفه: روح المعاني - الأجوبة العراقية والأسئلة الإيرانية .
انظر: معجم المؤلفين جـ ١٢ ص ١٧٥ .

٤ - روح المعاني مجلد ١٥ جـ ٢٨ ص ٤

٥ - الحديد ٩

٦ - المجادلة ٤

كُبِتُواْ كَمَا كُبِتَ ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡۚ وَقَدۡ أَنزَلۡنَآ ءَايَٰتِۭۚ بَيِّنَٰتٖۚ وَلِلۡكَٰفِرِينَ عَذَابٞ مُّهِينٞ " [١]

٢- أن الله - ﷻ - أمر في " الحديد" بالإنفاق في سبيل الله -ﷺ - فقال "ءَامِنُواْ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَأَنفِقُواْ مِمَّا جَعَلَكُم مُّسۡتَخۡلَفِينَ فِيهِۖ فَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنكُمۡ وَأَنفَقُواْ لَهُمۡ أَجۡرٞ كَبِيرٞ " [٢] وكذا قال في المجادلة حضاً على الإنفاق في وجه من وجوه الخير وهو طلب العلم فقال " يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا نَٰجَيۡتُمُ ٱلرَّسُولَ فَقَدِّمُواْ بَيۡنَ يَدَيۡ نَجۡوَىٰكُمۡ صَدَقَةٗۚ ذَٰلِكَ خَيۡرٞ لَّكُمۡ وَأَطۡهَرُۚ فَإِن لَّمۡ تَجِدُواْ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٞ رَّحِيمٌ " [٣]

٣- أنه عاتبهم في " الحديد" على التأخر في الإنفاق فقال لهم " وَمَا لَكُمۡ لَا تُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلرَّسُولُ يَدۡعُوكُمۡ لِتُؤۡمِنُواْ بِرَبِّكُمۡ وَقَدۡ أَخَذَ مِيثَٰقَكُمۡ إِن كُنتُم مُّؤۡمِنِينَ " [٤] كذلك عاتبهم في المجادلة على الإشفاق من الإنفاق فقال لهم " ءَأَشۡفَقۡتُمۡ أَن تُقَدِّمُواْ بَيۡنَ يَدَيۡ نَجۡوَىٰكُمۡ صَدَقَٰتٖۚ فَإِذۡ لَمۡ تَفۡعَلُواْ وَتَابَ ٱللَّهُ عَلَيۡكُمۡ فَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُواْ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥۚ وَٱللَّهُ خَبِيرُۢ بِمَا تَعۡمَلُونَ " [٥]

---

١ - المجادلة ٥

٢ - الحديد ٧

٣ - المجادلة ١٢

٤ - الحديد ٨

٥ - المجادلة ١٣

٤- أنه ذكر في الحديد حسرة المنافقين يوم القيامة وتمنيهم اللحوق بالمؤمنين فقال " يَوْمَ يَقُولُ ٱلْمُنَٰفِقُونَ وَٱلْمُنَٰفِقَٰتُ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱنظُرُونَا نَقْتَبِسْ مِن نُّورِكُمْ قِيلَ ٱرْجِعُوا۟ وَرَآءَكُمْ فَٱلْتَمِسُوا۟ نُورًا فَضُرِبَ بَيْنَهُم بِسُورٍ لَّهُۥ بَابٌۢ بَاطِنُهُۥ فِيهِ ٱلرَّحْمَةُ وَظَٰهِرُهُۥ مِن قِبَلِهِ ٱلْعَذَابُ ۞ يُنَادُونَهُمْ أَلَمْ نَكُن مَّعَكُمْ ۖ قَالُوا۟ بَلَىٰ وَلَٰكِنَّكُمْ فَتَنتُمْ أَنفُسَكُمْ وَتَرَبَّصْتُمْ وَٱرْتَبْتُمْ وَغَرَّتْكُمُ ٱلْأَمَانِىُّ حَتَّىٰ جَآءَ أَمْرُ ٱللَّهِ وَغَرَّكُم بِٱللَّهِ ٱلْغَرُورُ " [١] ثم ذكر في المجادلة نوعاً من الفتنة التي أوقع المنافقون فيها أنفسهم فقال " أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ نُهُوا۟ عَنِ ٱلنَّجْوَىٰ ثُمَّ يَعُودُونَ لِمَا نُهُوا۟ عَنْهُ وَيَتَنَٰجَوْنَ بِٱلْإِثْمِ وَٱلْعُدْوَٰنِ وَمَعْصِيَتِ ٱلرَّسُولِ وَإِذَا جَآءُوكَ حَيَّوْكَ بِمَا لَمْ يُحَيِّكَ بِهِ ٱللَّهُ ..... " [٢]

٥- أنه عاتب المؤمنين في سورة الحديد وأرشدهم إلى وجوب الخشوع لسماع القرآن وغيره من ذِكْر الله -ﷻ- وحذرهم أن عدم الخشوع يولد القساوة في القلوب وجفاء المعاملة فقال لهم " أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَن تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ ٱللَّهِ وَمَا نَزَلَ مِنَ ٱلْحَقِّ وَلَا يَكُونُوا۟ كَٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلُ فَطَالَ عَلَيْهِمُ ٱلْأَمَدُ فَقَسَتْ قُلُوبُهُمْ ۖ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ فَٰسِقُونَ " [٣] ثم نجد في المجادلة أمراً بالرفق واللين في معاملة المؤمنين مع بعضهم البعض وعلى الأخص مع أهل العلم بدين الله فقال " يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِذَا قِيلَ لَكُمْ تَفَسَّحُوا۟ فِى ٱلْمَجَٰلِسِ

---

١ - الحديد ١٣، ١٤

٢ - المجادلة ٨

٣ - الحديد ١٦

فَٱفْسَحُواْ يَفْسَحِ ٱللَّهُ لَكُمْ ۖ وَإِذَا قِيلَ ٱنشُزُواْ فَٱنشُزُواْ يَرْفَعِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنكُمْ وَٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْعِلْمَ دَرَجَٰتٍ ۚ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ " [١]، والله – ﷻ – أعلى وأعلم.

مناسبتها لما تلاها:

يقول الإمام البقاعي – رحمه الله – لما ختمت المجادلة بأنه مُعزُّ أهل طاعته، ومُـذلُّ أهل معصيته ومحادته، علله بتنزهه عن النقائص تأييداً للوعد بنصرهم فقال "سَبَّحَ " [٢] أي أوقع التنزيه الأعظم عن كل شائبة نقص " لِلَّهِ " [٣] الذي أحاط بجميـع صـفات الكمـال. [٤] انتهى.

ويقول أبو جعفر الغرناطي – رحمه الله – في وجه تناسب سـورة الحشـر مـع المجادلة " لا خفاء باتصال آيها بما تأخر من آي سورة المجادلة، ألا ترى أن قوله تعالى " أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ تَوَلَّوْاْ قَوْمًا غَضِبَ ٱللَّهُ عَلَيْهِم " [٥] إنما يراد به يهود، فذكر سبحانه سوء سريرتهم وعظيم جرأتهم، ثم قال في آخر السورة " لَّا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ يُوَآدُّونَ مَنْ حَآدَّ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ " [٦]

فحصل من هذا كله تنفيرُ المؤمنين منهم وإعلامهم بأن بغضهم من الإيمان وودهـم مـن النفاق لقبح ما انطووا عليه وشنيع ما ارتكبوه.

---

١ – المجادلة ١١

٢ – الحشر ١

٣ – الحشر ١

٤ – نظم الدرر لأبي الحسن إبراهيم بن عمر البقاعي جـ ١٩ ص ٤٠٣ ط دار الكتـاب الإسـلامي – القاهرة

٥ – المجادلة ١٤

٦ – المجادلة ٢٢

فلما أشارت هذه الآي إلى ما ذكر اتبعت بالإعلام في أول سورة الحشر بما عجَّل لهم من هوانهم وإخراجهم من ديارهم وأموالهم، وتمكين المسلمين منهم جرى على ما تقدم الإيماء إليه من سوء مرتكَبِهم " [١] انتهى.

سادساً: مقاصد سورة المجادلة:

من الأمور المهمة قبل الشروع في تفسير سورة من القرآن تفسيراً تحليلياً أن ننظر في مقاصد السورة حتى نفهم حكمة آياتها وألفاظها التي وردت فيها، فالكلمة قد تقال لكافر تحمل معنىً يختلف عمَّا إذا قيلت لمؤمن، فالله – ﷻ– خاطب الكافر وهو يُعذَّب فقال له " ذُقْ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْكَرِيمُ " [٢] ومعلوم أن ذلك من الذم له وليس المدح.

فالعبرة بالمقصد وليس باللفظ على ظاهره بعيداً سياق الآيات والسورة.

لذا يقول الإمام الشاطبي [٣] – رحمه الله – " قال تعالى " أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ ۚ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ ٱللَّهِ لَوَجَدُوا۟ فِيهِ ٱخْتِلَٰفًا كَثِيرًا " [٤] التدبر إنما يكون لمن التفت إلى المقاصد". [٥]

مقاصد السورة الكريمة:

السورة الكريمة في مضمونها العام من السور الاجتماعية التي تهتم بتنظيم المجتمع الإسلامي في تعامله مع بعضه البعض في الجانب الأُسري وغيره، ومع غيره من المخالفين خُفْيَةً أو صراحةً.

---

١ – البرهان في تناسب سور القرآن لابن الزبير الغرناطي ص ١٨٤ ط دار ابن الجوزي – السعودية

٢ – الدخان ٤٩

٣ – إبراهيم الشاطبي ٧٩٠ هـ ١٣٨٨م إبراهيم بن موسى بن محمد اللخمي، الغرناطي، المالكي الشهير بالشاطبي، (أبو إسحاق) محدث، فقيه أصولي، لغوي، مفسر، مات في شعبان، من مؤلفاته: عنوان التعريف بأسرار التكليف في الأصول شرح على الخلاصة في النحو في أسفار أربعة كبار – الموافقات في الأصول الأحكام – الاعتصام. انظر: معجم المؤلفين جـ ١ ص ٧٧

٤ – النساء ٨٢

٥ – الموافقات للشاطبي باب: الأدلة على التفصيل – المسألة الثامنة ٦٩٨ ط دار الكتب العلمية

يقول الأستاذ سيد قطب – رحمه الله – " في هذه السورة بصفة خاصة نشهد صورة موحية من رعاية الله للجماعة الناشئة، وهو يصنعها على عينه، ويربيها بمنهجه، ويشعرها برعايته، ويبني في ضميرها الشعورَ الحيَّ بوجوده – سبحانه – معها في أخص خصائصها، وأصغر شؤونها، وأخفى طواياها، وحراسته لها من كيد أعدائها خفيه وظاهره، وأخذها في حماه وكنفه، وضمها إلى لوائه وظله، وتربية أخلاقها وعاداتها وتقاليدها تربية تليق بالجماعة التي تنضوي إلى كنف الله، وتنتسب إليه، وتؤلف حزبه في الأرض، وترفع لواءه لتعرف به في الأرض جميعاً.[١]

ومن مقاصد السورة الكريمة: الحكم في قضية مظاهرة أوس بن الصامت من زوجه خولة، وإبطال ما كان في الجاهلية من تحريم المرأة إذا ظاهر منها زوجها وأن عملهم مخالف لما أراده الله وأنه من أوهامهم وزورهم التي كبتهم الله بإبطالها، وتخلص من ذلك إلى ضلالات المنافقين ومنها مناجاتهم بمرأى المؤمنين ليغيظوهم ويحزنوهم، ومنها موالاتهم اليهود، وحلفهم على الكذب، وتخلل ذلك التعرض لآداب مجلس الرسول ﷺ، وشرع التصدق قبل مناجاة الرسول ﷺ، والثناء على المؤمنين في مجافاتهم اليهود والمشركين، وأن الله ورسوله وحزبهما هم الغالبون. [٢]

ومن المقاصد الأساسية للسورة الكريمة:

١- الحديث عن سَعَة علم الله –ﷻ– وإحاطته بكل ما في هذا الكون من أقوال وأفعال وخفايا القلوب، وذلك كما جاء في آيات السورة من بدايتها إلى نهايتها، فالله – ﷻ– قد افتتح السورة الكريمة بقوله " قَدْ سَمِعَ ٱللَّهُ قَوْلَ ٱلَّتِى تُجَـٰدِلُكَ فِى زَوْجِهَا " وختم الآية بقوله " إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌۢ بَصِيرٌ " ثم جاءت الآيات المتوالية تقرر هذا العلم في كل موضوع من موضوعات السورة الكريمة فقال الله –ﷻ– " أَحْصَىٰهُ ٱللَّهُ

---

١ – في ظلال القرآن جـ ٦ ص ٣٥٠٣ ط دار الشروق الطبعة الثانية والثلاثون ١٤٢٣هـ – ٢٠٠٣ م

٢ – التحرير والتنوير جـ ٢٨ ص ٦، بصائر ذوي التمييز في لطائف الكتاب العزيز لمجد الدين يعقوب الفيروزآبادي جـ ١ ص ٤٥٦

وَنَسُوهُۚ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ شَهِيدٌ " ثـــم قولـــه " أَلَمۡ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يَعۡلَمُ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِ " وغير ذلك كثير حسبما سيأتي في البحث.

٢- نهي الله -ﷻ- للمؤمنين أن يتشبهوا بهؤلاء المنافقين في تناجيهم بالإثم والعدوان " يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا تَنَٰجَيۡتُمۡ فَلَا تَتَنَٰجَوۡاْ بِٱلۡإِثۡمِ وَٱلۡعُدۡوَٰنِ وَمَعۡصِيَتِ ٱلرَّسُولِ وَتَنَٰجَوۡاْ بِٱلۡبِرِّ وَٱلتَّقۡوَىٰ "

٣- إرشاد المؤمنين إلى وجوب التأدب مع النبي -ﷺ- وعد الإثقال عليه في المسائل " يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا نَٰجَيۡتُمُ ٱلرَّسُولَ فَقَدِّمُواْ بَيۡنَ يَدَيۡ نَجۡوَىٰكُمۡ صَدَقَةٗ "

وإلى تفسير السورة الكريمة، أسألُ اللهَ -ﷻ- التوفيقَ والهدى والرشادَ.

المطلب الأول

أحكام الظهار

يقول الله - ﷻ- ﴿ قَدْ سَمِعَ ٱللَّهُ قَوْلَ ٱلَّتِى تُجَـٰدِلُكَ فِى زَوْجِهَا وَتَشْتَكِىٓ إِلَى ٱللَّهِ وَٱللَّهُ يَسْمَعُ تَحَاوُرَكُمَآ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌۢ بَصِيرٌ ..... يَوْمَ يَبْعَثُهُمُ ٱللَّهُ جَمِيعًا فَيُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُوٓا۟ ۚ أَحْصَىٰهُ ٱللَّهُ وَنَسُوهُ ۚ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدٌ ﴾ [١]

بدأت السورة الكريمة بذكر حديث المجادِلة مع رسول الله - ﷺ- إذ هو الحديث الذي من أجله نزلت بداية السورة وهو أظهر مقاصدها لذا سُميت به.

وقد سلكت السورة الكريمة في بيان الظهار وما يتعلق به طريقتين:

أولهما: ذِكْرُ قصة المرأة وبيان حقيقة الظهار وقُبحه .

ثانيهما: بيان كفارته وما يتعلق بها .

ولتفصيل ذلك أقول – وبالله التوفيق –:

الأمر الأول: ذِكْرُ قصة المرأة وبيان حقيقة الظهار وقُبحه.

يقول الله -ﷻ- ﴿ قَدْ سَمِعَ ٱللَّهُ قَوْلَ ٱلَّتِى تُجَـٰدِلُكَ فِى زَوْجِهَا وَتَشْتَكِىٓ إِلَى ٱللَّهِ وَٱللَّهُ يَسْمَعُ تَحَاوُرَكُمَآ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌۢ بَصِيرٌ ۞ ٱلَّذِينَ يُظَـٰهِرُونَ مِنكُم مِّن نِّسَآئِهِم مَّا هُنَّ أُمَّهَـٰتِهِمْ ۖ إِنْ أُمَّهَـٰتُهُمْ إِلَّا ٱلَّـٰٓـِٔى وَلَدْنَهُمْ ۚ وَإِنَّهُمْ لَيَقُولُونَ مُنكَرًا مِّنَ

---

١ – المجادلة من الآية ١ حتى الآية ٦

ٱلْقَوْلِ وَزُورًا ۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَعَفُوٌّ غَفُورٌ ﴾ [١]

تتحدث هاتان الآيتان الكريمتان عن الظهار مبيِّنة حقيقته وصفة من يقع فيه، وللحديث عن هذه الآيات أبين ما جاء فيها في مسائل:

المسألة الأولى: سبب نزول الآيات .

جاء في سبب نزول الآيات عن عروة بن الزبير [٢] قال قالت عائشة تبارك الذي وسع سمعه كل شيء إني لأسمع كلام خولة بنت ثعلبة ويخفى علي بعضه وهي تشتكي زوجها إلى رسول الله – ﷺ– وهي تقول يا رسول الله أكل شبابي ونثرت له بطني حتى إذا كبرت سني وانقطع له ولدي ظاهر مني، اللهم إني أشكو إليك، قالت عائشة: فما برحت حتى نزل جبريل – عليه السلام – بهؤلاء الآيات " قَدْ سَمِعَ ٱللَّهُ قَوْلَ ٱلَّتِى تُجَـٰدِلُكَ فِى زَوْجِهَا "، قالت وزوجها أوس بن الصامت.[٣] أ.ه

المسألة الثانية: أقوال العلماء في اسم المرأة المجادِلة:

أشهر ما ورد في اسمها ما جاء في بيان سبب النزول، ومما ورد في ذلك أن اسمها خَوْلة أو خُويلة مصغراً، وقيل خولة بنت مالك بن ثعلبة، وقيل جميلة بنت مالك بن ثعلبة أو بنت دُلَيْج (مصغراً) العوفية، وربما قالوا: الخزرجية، وهي من بني عوف بن مالك بن الخزرج، من بطون الأنصار مع زوجها أوس بن الصامت الخزرجي أخي عبادة

---

١ – سورة المجادلة آية ١، ٢

٢ – هو عروة بن الزبير بن العوام بن خويلد بن أسد أبو عبد الله المدني كان ثقة كثير الحديث فقيهاً عالماً ثبتاً مأموناً ، وُلِدَ أواخر خلافة عمر وقيل لست خلون من خلافة عثمان ومات سنة إحدى أو اثنتين وتسعين.

انظر: تهذيب التهذيب لابن حجر جـ ٥ ص ٥٤٥

٣ – رواه الحاكم واللفظ له في مستدركه وقال: هذا حديث صحيح الإسناد ولم يخرجاه، وقال الذهبي في التلخيص: صحيحٌ. انظر: مستدرك الحاكم مع التلخيص جـ ٢ ص ٥٢٣ ط دار الكتب العلمية – بيروت، ورواه ابن ماجة في سننه في كتاب: الطلاق، باب: الظهار، حديث رقم ٢٠٦٣ جـ ١ ص ٦٦٦

بن الصامت، وقيل غير ذلك.[١]

لكن الذي يهمنا هنا – كما علمنا القرآنُ – هو موطن العبرة والعظة أو الحكم الشرعي كما هو الأمر هنا.

المسألة الثالثة: تفسير الآيات الكريمة.

قوله " قَدْ سَمِعَ ٱللَّهُ قَوْلَ ٱلَّتِى تُجَـٰدِلُكَ فِى زَوْجِهَا وَتَشْتَكِىٓ إِلَى ٱللَّهِ "

" قَدْ " هنا حرف تحقيق [٢] تدل على تحقق سماع الله – ﷻ– لجدال المرأة وشكايتها للنبي – ﷺ– وإجابة الله – ﷻ– لما طمعت فيه، يقول الطاهر بن عاشور [٣] – رحمه الله – " والسماع في قوله " سَمِعَ " معناه الاستجابة للمطلوب وقبُوله بقرينة دخول " قَدْ " التوقعية عليه فإن المتوقَّع هو استجابة شكواها " [٤] أ.ه

وقد ذكر الزمخشري [٥] – رحمه الله – وغيرُهُ: أن " قَدْ " هنا للتوقع وقد عللّوا

---

١ – التحرير والتنوير للطاهر بن عاشور جـ ٢٨ ص ٩، الكشاف للزمخشري جـ ٤ ص ٤٧٢، الجامع لأحكام القرآن للقرطبي جـ ١٧ ص ٢٥٨، تفسير القرآن العظيم لابن كثير جـ ٨ ص٢٣ ط دارمكتبة الصفا، اللباب لابن عادل جـ ١٨ ص ٥١٤، تفسير النسفي " مدارك التنزيل وحقائق التأويل " لأبي البركات عبد الله بن أحمد النسفي جـ ٤ ص ١٢٠٠ ط مكتبة نزار مصطفى الباز تحقيق / سيد زكريا

٢ – الجدول في إعراب القرآن جـ ٢٨ ص ١٦٥

٣ – محمد الطاهر بن عاشور، رئيس المفتيين المالكيين بتونس، وشيخ جامع الزيتونة وفروعه بتونس، مولده ووفاته ودراسته بها، عُين عام ١٩٣٢ م شيخاً للإسلام مالكياً، وهو من أعضاء المجمعين في دمشق والقاهرة، من مصنفاته: مقاصد الشريعة الإسلامية – أصول النظام الاجتماعي في الإسلام – التحرير والتنوير في تفسير القرآن – الوقف وآثاره في الإسلام. ولد عام ١٢٩٦هـ وتوفي عام ١٣٩٣هـ – ١٩٧٣ م. انظر: معجم المؤلفين جـ ٣ ص ٣٦٣

٤ – التحرير والتنوير للطاهر بن عاشور جـ ٢٨ ص ٨

٥ – هو محمود بن عمر بن محمد أبو القاسم الزمخشري الخوارزمي، النحوي المعتزلي المفسر، يُلَقَبُ بجار الله لأنه جاور بمكة زماناً، كان واسع العلم كثير الفضل متقناً في كل علم، معتزلياً قوياً في مذهبه مجاهراً به داعياً إليه، حنفياً، علاّمة في النحو، توفي سنة ثمانٍ وثلاثين وخمسمائة، من تصانيفه: الكشاف في التفسير – أساس البلاغة – المفصل ٠

انظر ترجمته في: طبقات المفسرين للداودي جـ ٢ ص ٣١٤

ذلك بأن رسول الله – ﷺ– والمجادِلة كانا يتوقعان أن يسمع الله –ﷻ– مجادلتها وشكواها وينزل في ذلك ما يفرِّج عنها . [١] أ.هـ

والتوقع هنا – في قول العلماء – ليس معناه احتمال حصول الشيء أو عدم حصوله وإنما هو التوقع بمعنى اليقين بحدوث الشيء المنتظر حدوثه، أما التوقع بمعنى الشك فغير لائق أن ننسبه للنبي – ﷺ– في مقام النبوة ولا إلى المرأة في مقام إيمانها بالله –ﷻ– ويقينها بالفرج الذي طمعت فيه.

لذا يقول ابن عاشور – رحمه الله – " و " قَدْ " أصله حرف تحقيق للخبر، فهو من حروف توكيد الخبر فالنبي – ﷺ– لا يخامره تردد في أن الله يعلم ما قالته المرأة التي جادلت في زوجها.

فتعين أن حرف " قَدْ " هنا مستعمل في التوقع، أي الإشعار بحصول ما يتوقعه السامع، ومعنى التوقع الذي يؤذن به حرف " قَدْ " في مثل هذا يؤول إلى تنزيل الذي يتوقع حصول أمر لشدة استشرافه له منزلةَ المتردد الطالب، ولهذا جزم الرضي في « شرح الكافية » بأن " قَدْ " لا بد فيها من معنى التحقيق، ثم يضاف إليه في بعض المواضع معانٍ أخرى " [٢] انتهى بتصرف.

وقد ذكر العلماء في معاني " قَدْ " أنها ترد للدلالة على التوقع مع الماضي فتدل معه على أنه كان متوقعاً منتظراً، ولذلك يستعمل في الأشياء المترقبة، ومنه قول المؤذن:

---

١ – انظر: الكشاف للزمخشري جـ ٤ ص ٤٧٣ ط دار الكتب العلمية – بيروت، الجدول في إعراب القرآن لمحمود صافي جـ ٢٨ ص ١٦٥ ط دار الرشيد – بيروت، التحرير والتنوير للطاهر ابن عاشور جـ ٢٨ ص ٨، اللباب لابن عادي الحنبلي جـ ١٨ ص ٥١٣، الدر المصون جـ ١٠ ص ٢٦١ لأحمد بن يوسف المعروف بالسمين الحلبي ط دار القلم – دمشق تحقيق د/ أحمد محمد الخرَّاط

٢ – التحرير والتنوير للطاهر بن عاشور جـ ٢٨ ص ٨، شرح الرضي على الكافية جـ ٤ ص ٤٤٤ ط منشورات جامعة قان يونس – بنغازي ط ثانية ١٩٩٦ م

قد قامت الصلاة، لأن الجماعة منتظرون.[١]

فالخلاصة هنا أنَّ " قَدْ " في الآية الكريمة تفيد تحقق ما كان متوقعاً منتظراً.

فـ " قَدْ "هنا متعلقة بسماع الله -ﷻ- فكان معنى اليقين فيها هو المتوافق مع الآية الكريمة، والله أعلم.

وقد عبَّر القرآن الكريم عن السماع بصيغة الماضي وعبر عن المجادلة بصيغة المضارع إشارةً إلى أن الله - ﷻ- قد علم جدال المرأة قبل أن تشرع في الجدال، حتى نستحضر اليقين بسماع الله - ﷻ- للمحاورة والجدال حال وقوعه، لذا عبر عن السماع بالماضي والجدال بالمضارع، والله أعلم ٠

وقد استُحضرت المرأة بعنوان الصلة " ٱلَّتِى " تنويهاً بمجادلتها وشكواها لأنها دلت على توكلها الصادق على رحمة ربها بها وبأبنائها وبزوجها ٠[٢]

قوله " تُجَـٰدِلُكَ " الجدال: مأخوذ من الجَدْل وهو شِدَّة الفَتْل وجَدَلْتُ الحَبْلَ أَجْدِلُه جَدْلاً إذا شددت فَتْله وفَتَلْتَه فَتْلاً مُحْكَماً ومنه قيل لزمام الناقة الجَدِيل، ومنه جارية مَجْدُولة الخَلْق حَسَنة الجَدْل والجَدِيل الزمام المجدول من أدم، ومنه قول امرئ القيس [٣]:

وكَشْحٍ لطيفٍ كالجَدِيل مُخَصَّرٍ * وسَاقٍ كأُنْبُوب السَّقِيِّ المُذَلَّل

---

١ - الجنى الداني في حروف المعاني للحسن بن قاسم المُرادي ص ٢٥٦، ٢٥٩ ط دار الكتب العلمية - بيروت، شرح المقدمة الكافية في علم الإعراب لجمال الدين أبو عمرو عثمان بن الحاجب جـ ٣ ص ٩٩٨ ط مكتبة نزار مصطفى الباز - المملكة العربية السعودية.

٢ - التحرير والتنوير للطاهر بن عاشور جـ ٢٨ ص ٨

٣ - هو امرؤ القيس بن حُجْر بن الحارث بن عمرو بن حجر، يتصل بملوك كِنْدة، يقال له الملكُ الضليل وذو القروح، قُتِلَ أبوه فذهب إلى قيصر مستنجدا له، فوُشِيَ به عنده فأهداه قيصر حُلَّةً مسمومة فلما لبسها أسرع السُّمُ فيه وسقط جلده فلذلك سُمِّيَ بذي القروح، ومات ببلدة من بلاد الروم ٠

انظر: رجال المعلقات العشر لمصطفى الغلاييني ص ٥١ وما بعدها ط دار الكتاب الإسلامي ٠

ورجل جَدِل إذا كان أقوى في الخِصام، وجادَله أي خاصمه مُجادلة وجِدالاً والاسم الجَـدَل وهو شدَّة الخصومة .[١]

قوله " فِي زَوْجِهَا " أي في شأن زوجها وما قام به من المظاهرة منها .

قوله " وَتَشْتَكِيٓ إِلَى ٱللَّهِ " الشكو والشكاية والشكاة والشكوى: إظهار البث، يقال: شكوت واشتكيت، قال تعالى " إِنَّمَآ أَشْكُواْ بَثِّى وَحُزْنِىٓ إِلَى ٱللَّهِ " [٢] وقال" وَتَشْتَكِيٓ إِلَى ٱللَّهِ "، وأشكاه أي: يجعل له شكوى، نحو: أمرضه، ويقال: أشكاه أي: أزال شكايته، ورُوى " شكونا إلى رسول الله – ﷺ– حر الرمضاء في جباهنا وأكفنا فلم يشكنا " [٣] ، وأصل الشكو فتح الشكوة ما فيه، وهي: سقاء صغير يجعل فيه الماء، وكأنه في الأصل استعارة، كقولهم: بثثت له ما في وعائي، ونفضت ما في جراب.[٤] أ.ه

قوله " وَٱللَّهُ يَسْمَعُ تَحَاوُرَكُمَآ "

يقول ابن عاشور – رحمه الله – " السماع في قوله " وَٱللَّهُ يَسْمَعُ تَحَاوُرَكُمَآ " مستعمل في معناه الحقيقي المناسب لصفات الله إذ لا صارف يصرف عن الحقيقة، فتعين صرف الخبر إلى إرادة الاعتناء بذلك التحاور والتنويه به وبعظيم منزلته لاشتماله على ترقب النبي – ﷺ– ما ينزله عليه من وحي، وترقب المرأة الرحمة، وإلا فإن المسلمين يعلمون أن الله عالم بتحاورهما " [٥] انتهى بتصرف.

---

١ – انظر: لسان العرب مادة " جدل" جـ ١١ ص ١٠٢ ط دار الفكر – بيروت، ديوان امرىء القيس قصيدة " قِفا نَبْكِ " ص ٣٩ ط دار الجيل بيروت .

٢ – يوسف ٨٦

٣ – الحديث رواه مسلم عن خباب ولفظه: شكونا إلى رسول الله – ﷺ– الصلاة في فلم يُشْكِنَا. أخرجه مسلم في كتاب: المساجد، باب: استحباب تقديم الظهر في أول الوقت، حديث رقم ٦١٩، انظر: صحيح مسلم بشرح النووي جـ ٣ ص ١٢٩

٤ – انظر: معجم مفردات ألفاظ القرآن للراغب الأصفهاني مادة " شكا " ص ٢٧٣ ط دار الفكر – بيروت .

٥ – التحرير والتنوير جـ ٢٨ ص ٩

" تَحَاوُرَكُمَا ": التحاور بمعنى التراجع في الكلام ٠

مأخوذ من الحَوْرُ وهو: الرجوع عن الشيء وإلى الشيء حارَ إلى الشيء وعنه حَوْراً ومَحاراً ومَحارَةً وحُؤُوراً رجع عنه وإليه، وهم يَتَحاوَرُون أي يتراجعون الكلام والمُحاوَرَةُ مراجعة المنطق والكلام في المخاطبة وقد حاوره والمَحُورَةُ من المُحاوَرَةِ مصدر كالمَشُورَةِ من المُشاوَرَة كالمَحْوَرَةِ، وحاورته: راجعته الكلام، وهو حسن الحوار، وكلمته فما رد عليّ محورة، وما أحار جواباً أي ما رجع، قال الأخطل [١]:

هلا ربعت فتسأل الأطلالا * ولقد سألت فما أحرن سؤالا [٢]

وسبب تحاورها وشكايتها لله – ﷻ– كما جاء في حديث عائشة المتقدم في سبب النزول " اللهم إني أشكو إليك " هو أنَّ الظهار في الجاهلية كان طلاقاً فلما سألت النبي – ﷺ– قال لها " حرمتِ عليه " [٣]، وقد قال لها ذلك لما أن الأمر لم يكن قد سبق فيه تشريع جديد بعد، حينها شكت إلى الله ﷻ٠

قوله " إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعُۢ بَصِيرٌ " بمنزلة التعليل لما سبقها من علم الله –ﷻ– بشكاية المرأة.

ثم انتقلت السورة الكريمة إلى تقرير حقيقة الظهار وبيان قبحه فقال الله – ﷻ– ﴿ ٱلَّذِينَ يُظَٰهِرُونَ مِنكُم مِّن نِّسَآئِهِم مَّا هُنَّ أُمَّهَٰتِهِمۡۖ إِنۡ أُمَّهَٰتُهُمۡ إِلَّا ٱلَّٰٓـِٔي وَلَدۡنَهُمۡۚ وَإِنَّهُمۡ لَيَقُولُونَ مُنكَرٗا مِّنَ ٱلۡقَوۡلِ وَزُورٗاۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَعَفُوٌّ غَفُورٞ ﴾

---

١ – غياث بن غوث بن الصلت من بني تغلب أبو مالك، شاعر مصقول الألفاظ، حسن الديباجة، اشتهر في عهد بني أمية بالشام، وأكْثَرَ مدحَ ملوكهم،ولد سنة ١٩ هـ نشأ على المسيحية في أطراف الحيرة بالعراق واتصل بالأمويين فكان شاعرهم، وتهاجى مع جرير والفرزدق، ومات سنة ٩٠ هـ ٠ انظر: معجم الشعراء جـ ٤ ص ١٣٣

٢ – انظر مادة " حور": لسان العرب جـ ٤ ص ٢١٧، أساس البلاغة ص ١٤٦ ط دار الفكر – بيروت

٣ – انظر: الجامع لأحكام القرآن للقرطبي جـ ١٧ ص ٢٥٩

قوله " ٱلَّذِينَ يُظَٰهِرُونَ مِنكُم مِّن نِّسَآئِهِم مَّا هُنَّ أُمَّهَٰتِهِمْ " هنا نلحظ في الآية الكريمة أنها انتقلت من الكلام عن المرأة وقصتها الخاصة إلى الحديث العام عن الموضوع، وهذا دليل للقاعدة القائلة " العبرة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب " فالحديث كله انتقل من الفردية إلى العموم الذي يشمل الجميع حتى يكون ذلك بياناً لعموم ما سيأتي من أحكام.

قراءة " يُظَٰهِرُونَ " :

اختلف القراء في " يُظَٰهِرُونَ " فقرأ عاصم [١] – رحمه الله – بضم الياء وتخفيف الظاء والهاء وكسرها وألف بينهما في الموضعين، وقرأ أبو جعفر [٢] – رحمه الله – وابن عامر [٣] وحمزة [٤] والكسائي [٥] وخلف [١] " يَظَّاهَرون " "بفتح الياء وتشديد الظاء وألف بعدها

---

١ – هو عاصم بن أبي النجود، مقرئ العصر، قرأ القرآن على أبى عبد الرحمن السَّلمي وزرّ بن حبيش، وحدث عنهما، وتصدر للإقراء مدة بالكوفة، توفي سنة سبع وعشرين ومائة .
انظر: سير أعلام النبلاء للذهبي جـ ٥ ص ٢٦٠

٢ – هو يزيد بن القعقاع أبو جعفر المخزومي المدني أحد القرَّاء العشرة، تابعي مشهور كبير القَدْر، عرض القرآن على مولاه ابن عباس وأبي هريرة – ﷺ – وروى عنهم، أتى أمَّ سلمة وهو صغير فمسحت رأسه ودعت له بالبركة، وصلى بابن عمر – ﷺ– وكان ثقة قليل الحديث، ومات سنة ثلاثين ومائة، وقيل اثنتين وثلاثين .
انظر ترجمته في: غاية النهاية في طبقات القراء لمحمد بن محمد ابن الجزري جـ ٢ ص٣٨٢

٣ – هو عبد الله بن عامر اليحصبي مقرئ الشام، ولد سنة إحدى وعشرين، وقرأ على أبي الدرداء، وروي أنه سمع قراءة عثمان بن عفان – رضى الله عنه – وحدث عن النعمان بن بشير، وكان قاضي الجند، وكان على بناء مسجد دمشق، وكان رئيس المسجد لا يرى فيه بدعة إلا غيَّرها، مات سنة ثمان عشرة ومائة . انظر: سير أعلام النبلاء جـ ٥ ص ٢٩٢

٤ – هو حمزة بن حبيب بن عمارة الزيات، الإمام القدوة شيخ القراءة، كان يجلب الزيت من الكوفة إلى حلوان، وكان إماماً قيّماً لكتاب الله قانتاً لله ثخين الورع رفيع الذكر، توفي سنة ثمان وخمسين ومائة . انظر: سير أعلام النبلاء للذهبي جـ ٧ ص ٩٠

٥ – هو علي بن حمزة الكسائي الكوفي أبو الحسن، إمام الكوفيين في النحو واللغة، وهو من أهل الكوفة، استوطن بغداد وكان يعلم بها الرشيد ثم المأمون، قرأ القرآن وجوّده على حمزة الزيات، ثم اختار لنفسه قراءة، قيل له الكسائي لأنه دخل المسجد الذي كان يقرئ

وتخفيف الهاء وفتحها، وقرأ نافع [٢] وابن كثير[٣] وأبو عمرو[٤] ويعقوب[٥] كذلك إلا أنه بتشديد الهاء من غير ألف قبلها.[٦] أ.ه

قال أبو علي: ظاهر من امرأته وظهّر مثل ضاعف وضعَّف وتدخل التاء على كل واحد منهما فيصير: تظاهَرَ وتَظَهَّرَ، ويدخل حرف المضارعة فيصير: يتظهَّر، ويتظاهر،

=

فيه حمزة الزيات فتقدم مع أذان الفجر وهو ملتفٌ بكساء من البركان الأسود، فلما صلى حمزة قال: من تقدم في الوقت يقرأ، فقيل له: الكسائي أول من تقدم، يعنون صاحب الكساء، مات بالري سنة اثنتين أو ثلاث وقيل تسع وثمانين ومائة، وقيل غير ذلك ٠

انظر: الأنساب لأبي سعد عبد الكريم بن محمد السمعاني جـ ٤ ص ٦٢٠ ط دار الكتب العلمية – بيروت، سير أعلام النبلاء جـ ٩ ص ١٣١، طبقات المفسرين للداودي جـ ١ ص ٤٠٤

١ – هو خلف بن هشام بن ثعلب أبو محمد البغدادي المقرئ البزار أحد الأعلام وله اختيار قرأ به وخالف فيه حمزة، قرأ على سليم عن حمزة وسمع مالكاً وأبا عوانة وقرأ على أبى يوسف الأعشى لعاصم، حدث عنه مسلم وأبو داود وابن حنبل وغيرهم ووثقه ابن معين والنسائي ولد سنة خمسين ومائة ومات في جمادى الآخرة سنة تسع وعشرين ومائتين.

انظر طبقات المفسرين للداوودي جـ١ ص ١٦٧

٢ – هو نافع بن عبد الرحمن بن أبي نعيم المدني، إمام أهل المدينة الذي صاروا إلى قراءته، كان محتسبا فيه دعابة، وكان شديد السواد، توفي سنة تسع وستين ومائة ٠

انظر: فوات الوفيات وأنباء أبناء الزمان لمحمد بن شاكر الكتبي جـ ٥ ص ٣٦٩ ط دار الشروق

٣ – هو عبد الله بن كثير بن عبد الله بن زاذان مقرئ مكة وأحد القراء السبعة، قرأ على مجاهد ودر باس مولى ابن عباس، وتلا عليه عمرو بن العلاء ،وحدث عن ابن الزبير وعكرمة ومجاهد، وكان رجلاً مهيباً فصيحاً كبير الشأن، ولد بمكة سنة ثمان وأربعين، وتوفي سنة عشرين ومائة ٠ انظر: سير أعلام النبلاء لشمس الدين الذهبي جـ ٥ ص ٣١٨ ط مؤسسة الرسالة ٠

٤ – هو أبو عمرو بن العلاء، قيل اسمه زبان، حدث باليسير عن أنس بن مالك ومجاهد، وقرأ على سعيد بن جبير وعكرمة ومجاهد، اشتهر بالفصاحة والصدق وسعة العلم، وبرز في النحو، وكانت وفاته سنة سبع وخمسين ومائة ٠انظر: سير أعلام النبلاء للذهبي جـ ٦ ص ٤٠٧

٥ – هو يعقوب بن إسحاق الحضرمي، قارىء أهل البصرة في عصره، قرأ القرآن على أبي المنذر سلام بن سليم وأبي الأشهب، وسمع من حمزة الزيات وشعبة، وبرع في الإقراء، وتوفي سنة خمس ومائتين ٠ انظر: معرفة القراء الكبار للذهبي جـ ١ ص ١٥٨ ط مؤسسة الرسالة

٦ – انظر: النشر في القراءات العشر لابن الجزري جـ ٢ ص ٢٨٧، إتحاف فضلاء البشر في القراءات الأربعة عشر جـ ٢ ص ٥٢٥ للشيخ / أحمد بن محمد البنا ط عالم الكتب – بيروت.

ثم تدغم التاء في الظاء لمقاربتها لها فيصير: يظَّاهر ويظَّهَّرُ، فمن ثقَّل جعلها من " تظَهَّرْتُ " ثم أدغم التاء في الظاء. [١] أ.ه

وفي هاتين الآيتين أمران بيانهما كالتالي:

أولهما: معنى الظهار:

الظهار مأخوذ من الظهر، ظاهَرَ الرجلُ امرأته ومنها مُظاهَرَةً وظِهاراً إذا قال هي عليّ كظَهْرِ ذاتِ رَحِمٍ، وقد تَظَهَّر منها وتَظاهَر وظَهَّرَ من امرأته تَظْهِيراً، والمعنى: أن يقول الرجل لامرأته أنتِ عليّ كظَهْرِ أُمِّي، وكانت العرب تُطلِّق نساءها في الجاهلية بهذه الكلمة، وأصل الظِّهارُ مأخوذ من الظَّهْر وإنما خَصُّوا الظَّهْرَ دون البطن والفَخذِ والفرج وهذه أولى بالتحريم لأن الظَّهْرَ موضعُ الركوب والمرأةُ مركوبةٌ إذا غُشِيَت فكأنه إذا قال أنتِ عليّ كظَهْرِ أُمِّي أراد رُكوبُكِ للنكاح عليّ حرام كركُوب أُمي للنكاح فأقام الظهر مُقامَ الركوب لأنه مركوب وأقام الركوبَ مُقام النكاح لأن الناكح راكب وهذا من لَطِيف الاستعارات للكناية، قيل أرادوا أنتِ عليّ كبطن أُمي أي كجماعها فكَنَوْا بالظهر عن البطن للمُجاورة، وقيل إن إتْيانَ المرأة وظهرُها إلى السماء كان حراماً عندهم وكان أهلُ المدينة يقولون إذا أُتِيت المرأةُ ووجهُها إلى الأرض جاء الولدُ أحْولَ فلِقَصْدِ الرجل المُطَلِّق منهم إلى التغليظ في تحريم امرأته عليه شبَّهها بالظهر ثم لم يَقْنَعْ بذلك حتى جعلها كظَهْرِ أُمه . [٢] أ.ه

يقول الشيخ السايس – رحمه الله – نزل القرآن الكريم والعرب يعقلون من هذا التركيب " ظاهر من زوجته" أنه قال لها: « أنت عليّ كظهر أمّي» فهو نظير" لبّى" إذا قال" لبيك" و" أفف" إذا قال " أف" و" سبّح " إذا قال "سبحان اللّه " و"كبّر" إذا قال " اللّه أكبر".

---

١ – الحجة للقراء السبعة لأبي علي الفارسي جـ ٤ ص ٣٣ ط دار الكتب العلمية – بيروت، معاني القرآن لأبي الحسن سعيد بن مسعدة الأخفش الأوسط ص ٥٣٧ ط مطبعة المدني.

٢ – انظر: لسان العرب مادة " ظهر " جـ ٤ ٥٢٨، النهاية في غريب الحديث والأثر لمجد الدين أبي السعادات المبارك بن محمد الجزري ابن الأثير ٦٠٦ هـ جـ ٣ ص ١٦٤ ط المكتبة الإسلامية – تحقيق طاهر أحمد الزاوي – محمود محمد الطناجي

فجاء الشرع فألحق بهذه الصيغة – « أنت عليّ كظهر أمّي » – في الحكم كلّ ما يدلّ على تشبيه الرجل زوجته أو جزءا منها بأنثى محرّمة عليه على التأبيد.

وقد كان الظهار في الجاهلية طلاقاً لا حلّ بعده برجعة ولا بعقد، لأنهم كانوا يجرون أحكام الأمومة على المظاهر منها، فأبطل اللّه هذه العادة، وجعل للظّهار أحكاماً.[١] أ.ه

وقوله " مِنكُم " ليس قيداً بمعنى أن الحديث عن الظهار وأحكامه المذكورة ليست موجهة للعرب والمعاصرين خاصة فيترتب على ذلك أن غيرهم لو ظاهر لا يتناوله الخطاب، وإنما الغرض كما ذكر الإمام الرازي[٢] – رحمه الله – توبيخ للعرب وتهجين لعادتهم في الظهار لأنه كان من أيمان الجاهلية خاصة دون سائر الأمم.[٣]

فالخطاب لهم للتقبيح لكن الحكم عام فيهم وفي غيرهم من المسلمين.

كذلك يستفاد من قول الله –ﷻ – " مِنكُم " أن الحكم قاصر على المؤمنين فقط، فظهار الذمي لا يلزم كما ذكر بعض العلماء.[٤]

ثانيهما: تقبيح أمر الظهار.

قبّح الله –ﷻ – أمر الظهار أشد تقبيح، لذا نجد الآية الكريمة تتحدث عن هذا الأمر بأسلوب يجعل من الظهار أمراً يأنف أهل الإيمان من الوقوع فيه، فيقول الله – ﷻ–

---

١ – تفسير آيات الأحكام للسايس جـ ٤ ص ٨ ط مكتبة الصفا

٢ – هو محمد بن عمر بن الحسين بن الحسن بن على البكري الرازي فخر الدين المفسر المتكلم، ولد سنة أربع وأربعين وخمسمائة، وتعلم على يد البغوي وغيره، وأتقن علوماً كثيرة وبرز فيها وتقدم، وصنف في فنون كثيرة، وحدث بينه وبين جماعة من الكرامية مخاصمات وفتن وأذي بسببهم، وتوفي سنة ستٍ وستمائة .

من تصانيفه: التفسير الكبير – المحصول – المعالم في أصول الدين .

انظر: طبقات المفسرين للداودي جـ ٢ ص ٢١٥

٣ – مفاتيح الغيب للرازي جـ ١٥ ص ٤٢٧

٤ – البحر المحيط لمحمد بن يوسف الشهير بأبي حيان الأندلسي جـ ٨ ص ٢٣١ ط دار الكتب العلمية – بيروت

" ٱلَّذِينَ يُظَٰهِرُونَ مِنكُم مِّن نِّسَآئِهِم مَّا هُنَّ أُمَّهَٰتِهِمْ ۖ إِنْ أُمَّهَٰتُهُمْ إِلَّا ٱلَّٰٓـِٔى وَلَدْنَهُمْ ۚ وَإِنَّهُمْ لَيَقُولُونَ مُنكَرًا مِّنَ ٱلْقَوْلِ وَزُورًا ۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَعَفُوٌّ غَفُورٌ "

فتبدأ الآية بتقرير الحقيقة المخالفة للظهار فيقول الله – ﷻ – " مَّا هُنَّ أُمَّهَٰتِهِمْ " فقولهم على خلاف الحق والواقع، ثم قررت الآية حقيقة الأمر " إِنْ أُمَّهَٰتُهُمْ إِلَّا ٱلَّٰٓـِٔى وَلَدْنَهُمْ "

قوله " أُمَّهَٰتِهِمْ ":

قرأ عاصم في رواية المفضل " مَّا هُنَّ أُمَّهَٰتُهُم " رفع، ولم يختلف في ذلك أنه نصب على لفظ حفص.

وجه الرفع أنه لغة تميم، قال سيبويه: وهو أقيس الوجهين، وذلك أنّ النفي كالاستفهام كما لا يغيّر الاستفهام الكلام عمّا كان عليه في الواجب، وكذلك ينبغي أن لا يغيّر في النفي عمّا كان عليه في الواجب.

ووجه النصب: أنه لغة أهل الحجاز، وعليها جاء قوله " مَا هَٰذَا بَشَرًا " [١]. [٢]

والآية فيها دلالة على أن الظهار في بداية الإسلام كان معتبراً، فلم يكن الأمر إلغاءً لما كان عليه أهل الجاهلية.

يقول ابن عادل – رحمه الله – " اعلم أن الظِّهار كان من أشدّ طلاق الجاهلية، لأنه في التحريم أوكدُ ما يمكن، فإن كان الحكم صار مقرّراً في الشرع كانت الآية ناسخة له، وإلا لم يفد نسخاً، لأن النسخ إنما يدخل في الشَّرائع لا في عادة الجاهلية، لكن الذي روي أنه – عليه الصلاة والسلام – قال لها « حَرُمْتِ » أوْ« مَا أَرَاكَ إلاَّ قَدْ حَرُمْتِ » كالدلالة على أنه كان شرعاً.

فأما ما روي أنه توقف في الحكم فلا يدل على ذلك " [٣] أ.ه

---

١ – يوسف ٣١

٢ – الحجة للقراء السبعة لأبي علي الفارسي جـ ٤ ص ٣٣

٣ – اللباب لابن عادل جـ ١٨ ص ٥١٦

ومن البلاغة في الآية الكريمة السلب [١] والإيجاب [٢]: وهو نفي الشيء من جهة وإيجابه من جهة أخرى، أو أمر بشيء من جهة ونهي عنه من جهة ثانية.

وهنا في هذه الآية الكريمة نفي لصيرورة المرأة أمّا بالظهار، وإثبات الأمومة للتي ولدت الولد. [٣] أ.ه

أيضاً نجد أن الظهار عُدى بـ " مِّن " لأنهم كانوا إذا ظاهروا المرأة تجنبوها كما يتجنبون المطلقة ويحترزون منها، فكأن قوله: ظاهر من امرأته، أي بعد واحترز منها كما قيل: آلى من امرأته، لما ضمن معنى التباعد عدى بـ " مِّن " [٤]

وبعد تقرير هذه الحقائق التي خالفها الظهار نجد السورة الكريمة تشدد على هذا المظاهر " وَإِنَّهُمْ لَيَقُولُونَ مُنكَرًا مِّنَ ٱلْقَوْلِ وَزُورًا "

والمُنْكَرُ من الأمر خلاف المعروف، والإنْكارُ والمُنْكَرُ ضد المعروف وكلُّ ما قبحه الشرعُ وحَرَّمَهُ وكرهه فهو مُنْكَرٌ ونَكِرَه يَنْكَرُه نَكَراً فهو مَنْكُورٌ واسْتَنْكَرَه فهو مُسْتَنْكَرٌ والجمع مَناكِيرُ .

والمنكر: كل فعل تحكم العقول الصحيحة بقبحه، أو تتوقف في استقباحه واستحسانه العقول، فتحكم بقبحه الشريعة. [٥]

ولم تكتفِ الآية بهذا الوصف المنفِّر للظهار بل زادت غليه وصفاً آخر فقال الله – ﷻ – " وَزُورًا " والزُّور: بمعنى المَيْل عن الحق والصواب، والزور: أعلى الصدر،

---

١ – في قوله " مَّا هُنَّ أُمَّهَٰتِهِمْ "

٢ – في قوله "إِنْ أُمَّهَٰتُهُمْ إِلَّا ٱلَّٰٓـِٔى وَلَدْنَهُمْ "

٣ – الجدول في إعراب القرن وصرفه وبيانه لمحمود صافي جـ ١٤ ص ١٧٠ ط دار الرشيد – بيروت.

٤ – نظم الدرر للبقاعي جـ ١٩ ص ٣٤٧

٥ – انظر مادة " نكر" في: لسان العرب جـ ٥ ص ٢٣٣، معجم مفردات ألفاظ القرآن للراغب الأصفهاني ص ٥٢٦

والزور: ميل في الزور، والأزور: المائل الـزور، وقولـه " تَّزَٰوَرُ عَن كَهۡفِهِمۡ " [١] أي: تميل، وقوم زورٌ وبئر زوراء: مائلة الحفر وقيل للكذب: زور، لكونه مائلاً عـن جهتـه، ويسمى الصنم زوراً لكون ذلك كذبا وميلاً عن الحق ٠ [٢] أ.ه

فهذان الوصفان جاءا تقبيحاً لشأن الظهار إذ هو مخالف للحق والصواب ٠

فائدة: علة تقبيح أمر الظهار ٠

ذمَّ الله -ﷻ- الظهار في غير ذلك من المواضع كما فـي قولـه " مَّا جَعَلَ ٱللَّهُ لِرَجُلٖ مِّن قَلۡبَيۡنِ فِي جَوۡفِهِۦۚ وَمَا جَعَلَ أَزۡوَٰجَكُمُ ٱلَّـٰٓـِٔي تُظَٰهِرُونَ مِنۡهُنَّ أُمَّهَٰتِكُمۡۚ وَمَا جَعَلَ أَدۡعِيَآءَكُمۡ أَبۡنَآءَكُمۡۚ ذَٰلِكُمۡ قَوۡلُكُم بِأَفۡوَٰهِكُمۡۖ وَٱللَّهُ يَقُولُ ٱلۡحَقَّ وَهُوَ يَهۡدِي ٱلسَّبِيلَ " [٣]

وهنا للإنسان أن يستفهم عن حكمة ذكر الأفواه مع أنه من المعلـوم أنَّ القـول لا يكون إلا عن طريقها ؟

يقول الشيخ السايس – رحمه الله –: زيادة قوله تعالى " بِأَفۡوَٰهِكُمۡ " للتنبيه على أنه قول صادر من الأفواه فقط، من غير أن يكون له مصداق أو حقيقة في الواقع ونفـس الأمر، فلا يستتبع أحكاماً كما يزعمون. [٤]

يقول الإمام الرازي – رحمه الله – في وجه البلاغة في هذا التعبير (فيـه لطيفـة وهو أن الكلام المعتبر على قسمين أحدهما: كلام يكون عن شيء كان فيقـال، والثـاني: كلام يقال فيكون كما قيل، والأول كلام الصادقين الذين يقولون ما يكـون، والآخـر كـلام الصديقين الذين إذا قالوا شيئاً جعله الله كما قالوه وكلاهما صادر عن قلب، والكلام الـذي

---

١ – الكهف١٧

٢ – انظر:، معجم مفردات ألفاظ القرآن للراغب ص مادة " زور" ص ٢٢١

٣ – الأحزاب ٤

٤ – تفسير آيات الأحكام للشيخ محمد علي السايس جـ ٤ ص ٩ ط مكتبة الصفا ٠

يكون بالفم فحسب هو مثل نهيق الحمار أو نباح الكلب، لأن الكلام المعتبر هو الذي يعتمد عليه والذي لا يكون عن قلب وروية لا اعتماد عليه، والله تعالى ما كرم ابن آدم وفضلَّه على سائر الحيوانات ينبغي أن يحترز من التخلق بأخلاقها، فقول القائل: هذا ابن فلان مع أنه ليس ابنه ليس كلاماً فإن الكلام في الفؤاد وهذا في الفم لا غير، واللطيفة هي أن الله تعالى ههنا قال " ذَٰلِكُمْ قَوْلُكُم بِأَفْوَٰهِكُمْ " وقال في قوله " وَقَالَتِ ٱلْيَهُودُ عُزَيْرٌ ٱبْنُ ٱللَّهِ وَقَالَتِ ٱلنَّصَٰرَى ٱلْمَسِيحُ ٱبْنُ ٱللَّهِ ۖ ذَٰلِكَ قَوْلُهُم بِأَفْوَٰهِهِمْ " [1] يعني نسبة الشخص إلى غير الأب قول لا حقيقة له ولا يخرج من قلب، ولا يدخل أيضاً في قلب فهو قول بالفم مثل أصوات البهائم)[2] أ.ه

قوله " وَٱللَّهُ يَقُولُ ٱلْحَقَّ وَهُوَ يَهْدِى ٱلسَّبِيلَ " تذييل جيء به بقصد المقابلة بين الأقوال الباطلة التي سبق ذكرها من الزعم بوجود قلبين لإنسان، الظهار، والتبني، فالمعنى: أنَّ ما حكم به الله – ﷻ– على غير ما قال به من ادعى هذه الأباطيل السابقة من الزعم بوجود قلبين لإنسان ما، أو تشبيه للزوجة بالأم، أو نسبة الولد لغير أبيه فكل ذلك على غير الحقيقة والواقع، لكن قول الله – ﷻ– هو الحق الموافق للواقع .

وسيأتي مزيد بيان لهذا الأمر عند الحديث عن كفارة الظهار .

ثم ذيَّل الله –ﷻ – الآية محل البحث بقوله " وَإِنَّ ٱللَّهَ لَعَفُوٌّ غَفُورٌ " فتحاً لباب التوبة عمَّا سلف من المظاهرة قبل نزول الآية وما يمكن أن يحدث بعد ذلك منه .

المسألة الرابعة: كفارة الظهار .

ذمَّ الله الظهار لأنه نوع من الكذب الذي ينبغي على المسلم ألا يقع فيه فوصفه بالمنكر والزور، وإضافة لهذا الذم الشديد نجد التشديد في كفارة الظهار.

وإذا نظرنا في كفارة الظهار نجد أنَّ رب العزة – ﷻ– قد شدَّدَ فيها وغلَّظ على

---

١ – التوبة ٣٠

٢ – مفاتيح الغيب للرازي جـ١٢ ص ٥٧٠

المظاهر، وذلك كما جاء في قوله ﷻ ﴿ وَٱلَّذِينَ يُظَٰهِرُونَ مِن نِّسَآئِهِمْ ثُمَّ يَعُودُونَ لِمَا قَالُواْ فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مِّن قَبْلِ أَن يَتَمَآسَّا ۚ ذَٰلِكُمْ تُوعَظُونَ بِهِۦ ۚ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ۞ فَمَن لَّمْ يَجِدْ فَصِيَامُ شَهْرَيْنِ مُتَتَابِعَيْنِ مِن قَبْلِ أَن يَتَمَآسَّا ۖ فَمَن لَّمْ يَسْتَطِعْ فَإِطْعَامُ سِتِّينَ مِسْكِينًا ۚ ذَٰلِكَ لِتُؤْمِنُواْ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ۚ وَتِلْكَ حُدُودُ ٱللَّهِ ۗ وَلِلْكَٰفِرِينَ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾ [١]

علة التشديد في كفارة الظهار:

السبب في ذمّ الظهار وتشديد كفارته أنه يُعتبر تعدياً على حق الله - ﷻ- في التحليل والتحريم، ذلك أنّ المظاهر قد حرّم على نفسه ما أحله الله له، والتحليل والتحريم في الإسلام حق لله - ﷻ- وحده، فلا يحق لأحدٍ أياً كان أن يحرم أو يحلل لنفسه ما شاء .

والرسول - ﷺ- لم يكن له دخل في هذا الأمر من قريب أو بعيد، فلم يتعد دوره دور البلاغ والتبيين فقط " مَّا عَلَى ٱلرَّسُولِ إِلَّا ٱلْبَلَٰغُ " [٢]

وبيَّن الله -ﷻ- للأمة أن النبي - ﷺ- لا يستطيع تغيير شيء أوحاه الله - ﷻ- له " وَلَوْ تَقَوَّلَ عَلَيْنَا بَعْضَ ٱلْأَقَاوِيلِ ۞ لَأَخَذْنَا مِنْهُ بِٱلْيَمِينِ ۞ ثُمَّ لَقَطَعْنَا مِنْهُ ٱلْوَتِينَ ۞ فَمَا مِنكُم مِّنْ أَحَدٍ عَنْهُ حَٰجِزِينَ " [٣]

فكيف بعد ذلك لأحدٍ أن يتدخل في حق من حقوق الله - ﷻ- ويتعدى على هذا الحق الخالص له، فمن فعل ذلك فقد استحق الوعيد والتهديد .

---

١ - المجادلة ٣، ٤

٢ - المائدة ٩٩

٣ - الحاقة ٤٤ - ٤٥ - ٤٦ - ٤٧

يقول الإمام الألوسي – رحمه الله – " يُعْلَمُ من الآيات أن الظهار حرام بل قالوا إنه كبيرة لأن فيه إقداماً على إحالة حكم الله – ﷻ– وتبديله بدون إذنه، وهذا أخطر من كثير من الكبائر إذ قضيتُه الكفر لولا خلو الاعتقاد عن ذلك " [١] أ.ه

وقد بدأت الآيات الكريمة بقوله " وَٱلَّذِينَ يُظَٰهِرُونَ مِن نِّسَآئِهِمْ " دون قوله في الآية السابقة " مِنكُم " لبيان أن هذه اللفظة الكريمة – كما ذكرتُ سابقاً – ليست قيداً للحكم فهو حكم عام يتناول الجميع من عاصر نزول الآية ومن سيأتي بعدهم إلى يوم القيامة، إنما جاءت في الآية السابقة تقريعاً للعرب الذين انتشرت فيهم عادة الظهار، أما الحكم فهو يتناولهم وغيرهم إلى يوم القيامة .

قوله " مِن نِّسَآئِهِمْ " بيان لكون الظهار لا يصح من الأجنبية، ذلك أن الآية الكريمة نسبت النساء للمظاهرين، والأجنبيات لسن في حكم الزوجات، وقد اختلف العلماء في ذلك.

يقول ابن قدامة – رحمه الله – " الظهار من الأجنبية يصح، سواء قال ذلك لامرأة بعينها، أو قال: كل النساء علي كظهر أمي، وسواء أوقعه مطلقا، أو علقه على التزويج، فقال: كل امرأة أتزوجها، فهي علي كظهر أمي، ومتى تزوج التي ظاهر منها، لم يطأها حتى يكفر.

يروى نحو هذا عن عمر بن الخطاب – ﷺ– وبه قال سعيد بن المسيب، وعروة، وعطاء، والحسن، ومالك، وإسحاق.

ويحتمل أن لا يثبت حكم الظهار قبل التزويج، وهو قول الثوري، وأبي حنيفة والشافعي.

ويروى ذلك عن ابن عباس لقول الله تعالى " وَٱلَّذِينَ يُظَٰهِرُونَ مِن نِّسَآئِهِمْ " والأجنبية ليست من نسائه، ولأن الظهار يمين ورد الشرع بحكمها مقيداً بنسائه، فلم

---

١ – روح المعاني جـ ٢٨ ص ٨

يثبت حكمها في الأجنبية، كالإيلاء، فإن الله تعالى قال " وَٱلَّذِينَ يُظَٰهِرُونَ مِن نِّسَآئِهِمْ " كما قال " لِّلَّذِينَ يُؤْلُونَ مِن نِّسَآئِهِمْ " [١] ولأنها ليست بزوجة، فلم يصح الظهار منها، كأمته، ولأنه حرم محرمة، فلم يلزمه شيء، كما لو قال: أنت حرام" [٢] أ.ه

والقول بأن الظهار متعلق بالزوجات دون الأجنبيات أقرب للآية الكريمة ذلك أن لفظ " نِّسَآئِهِم " جعل النساء هنا منسوبات للمظاهرين فدلَّ على أن من ظاهر من غير نسائه لا عبرة بظهاره إذ هو قد ظاهر ممن ليست زوجاً له، والكلام مبسوط في كتب الفقه، والله أعلم

قوله " ثُمَّ يَعُودُونَ لِمَا قَالُواْ " اختلف العلماء في المراد بالعَوْد هنا على سبعة أقوال:

القول الأول – أنه العزم على الوطء، وهو مشهور قول العراقيين أبي حنيفة وأصحابه، وروي عن مالك: فإن عزم على وطئها كان عوداً، وإن لم يعزم لم يكن عوداً.

القول الثاني – العزم على الإمساك بعد التظاهر منها، قاله مالك.

الثالث – العزم عليهما، وهو قول مالكٍ في موطئه، قال مالك في قوله الله – ﷻ – " وَٱلَّذِينَ يُظَٰهِرُونَ مِن نِّسَآئِهِمْ ثُمَّ يَعُودُونَ لِمَا قَالُواْ " قال: سمعت أن تفسير ذلك أن يظاهر الرجل من امرأته ثم يجمع على إصابتها وإمساكها، فإن أجمع على ذلك فقد وجبت عليه الكفارة، وإن طلقها ولم يجمع بعد تظاهره منها على إمساكها وإصابتها فلا كفارة عليه.

قال مالك: وإن تزوجها بعد ذلك لم يمسها حتى يكفر كفارة التظاهر.[٣]

القول الرابع – أنه الوطء نفسه فإن لم يطأ لم يكن عوداً، قاله الحسن ومالك أيضاً.

---

١ – البقرة ٢٢٦

٢ – المغني لابن قدامة المقدسي جـ ٨ ص ٦١٦

٣ – موطأ مالك كتاب الظهار، باب ظهار الحر جـ ٢ ص ٤٤٨ ط دار إحياء الكتب العربية

الخامس: قال الإمام الشافعي – رحمه الله – هو أن يمسكها زوجة بعد الظهار مع القدرة على الطلاق، لأنه لما ظاهر قصد التحريم، فإن وصل به الطلاق فقد جرى على خلاف ما ابتدأه من إيقاع التحريم ولا كفارة عليه، وإن أمسك عن الطلاق فقد عاد إلى ما كان عليه فتجب عليه الكفارة.

السادس: أن الظهار يوجب تحريماً لا يرفعه إلا الكفارة: ومعنى العود عند القائلين بهذا: أنه لا يستبيح وطأها إلا بكفارة يقدمها، قاله أبو حنيفة وأصحابه والليث.

السابع: هو تكرير الظهار بلفظه.

وهذا قول أهل الظاهر النافين للقياس، قالوا: إذا كرر اللفظ بالظهار فهو العود، وإن لم يكرر فليس بعود.

ويسند ذلك إلى بكير بن الاشج وأبي العالية وأبي حنيفة أيضاً، وقال أبو العالية: وظاهر الآية يشهد له، لأنه قال: (ثُمَّ يَعُودُونَ لِمَا قَالُواْ) أي إلى قول ما قالوا.

وروى علي بن أبي طلحة عن ابن عباس في قوله – ﷺ – " وَٱلَّذِينَ يُظَٰهِرُونَ مِن نِّسَآئِهِمْ ثُمَّ يَعُودُونَ لِمَا قَالُواْ " هو أن يقول لها أنت عليَّ كظهر أمي، فإذا قال لها ذلك فليست تحل له حتى يكفر كفارة الظهار.

وقيل: المعنى الذين كانوا يظاهرون من نسائهم في الجاهلية، ثم يعودون لما كانوا قالوه في الجاهلية في الإسلام فكفارة من عاد أن يحرر رقبة.[1] انتهى بتصرف.

مناقشة هذه الأقوال:

والقول الأقرب للصواب من هذه الأقوال القول بأن العود هنا هو إرادة العود عمَّا قالوا أو إرادة الجماع أو الوطء نفسه لأنه المعنى المتماشي مع سياق الآيات الكريمة، وهذا ما جاء في مجموع هذه الأقوال، بخلاف القول السابع بأنه العود إلى لفظ الظهار مرة ثانية، وهذا القول قد ردّه العلماء وحكموا بعدم وجاهته.

---

١ – الجامع لأحكام القرآن للقرطبي جـ ١٧ ص ٢٦٧، أحكام القرآن للجصاص جـ ٣ ص ٥٥٩.

فقد ردَّه ابن العربي[١] – رحمه الله – فقال: فأما القول بأنه العود إلى لفظ الظهار فهو باطل قطعاً لا يصح عن بكير، وإنما يشبه أن يكون من جهالة داود وأشياعه.

وقد رويت قصص المتظاهرين وليس في ذكر الكفارة عليهم ذكر لعود القول منهم، وأيضا فإن المعنى ينقضه، لان الله تعالى وصفه بأنه منكر من القول وزور، فكيف يقال له إذا أعدتَ القول المحرم والسبب المحظور وجبت عليك الكفارة، وهذا لا يعقل، ألا ترى أن كل سبب يوجب الكفارة لا تشترط فيه الإعادة من قتل ووطئ في صوم أو غيره. [٢] أ.ه

كذلك ردَّه الطاهر بن عاشور – رحمه الله – وقال في تقرير ذلك " وهذا يقتضي أن المظاهر لا يكون مظاهراً إلا إذا صدر منه لفظ الظهار مرة ثانية بعد أولى.

وبهذا فسر القراء [٣]، وروي عن علي بن طلحة عن ابن عباس: بحيث يكون ما يصدر منه مرة أولى معفواً عنه، غير أن الحديث الصحيح في قضية المجادلة يدفع هذا الظاهر لأن النبي – ﷺ– قال لأوس بن الصامت: أعتق رقبة " [٤] انتهى.

---

١ – هو محمد بن عبد الله بن محمد أبو بكر ابن العربي المعافري الأندلسي وُلِدَ سنة ثمانٍ وستين وأربعمائة، تلقى العلم ببلده إشبيلية وقرطبة ومصر والشام ودخل بغداد وأقام في الإسكندرية ثم انصرف إلى الأندلس سنة خمس وتسعين فقَدِمَ بلده إشبيلية بعلم كثير وكان من أهل التفنن في العلوم والاستبحار فيها، توفي سنة ثلاث وأربعين وخمسمائة ٠

من تصانيفه الكثيرة: أحكام القرآن – القواصم والعواصم – الناسخ والمنسوخ ٠

انظر ترجمته في: طبقات المفسرين للسيوطي ص ٩٠ ط دار الكتب العلمية، طبقات المفسرين للداوودي ٢ ص ١٦٧

٢ – أحكام القرآن لأبي بكر محمد بن عبد الله المعروف بابن العربي جـ ٤ ص ١٩٢ ط دار الكتب العلمية – بيروت.

٣ – هو يحي بن زياد بن عبد الله أبو زكريا الفراء، كان أعلم الكوفيين بالنحو بعد الكسائي، كان يحب الكلام ويميل إلى الاعتزال، وكان أكثر مقامه في بغداد فإذا كان آخر السنة أتى الكوفة فأقام بها أربعين يوما يفرق في أهله ما جمعه، وكان شديد المعاش لا يأكل حتى يمسه الجوع، مات سنة سبع ومائتين بطريق مكة عن سبع وستين سنة ٠ من مصنفاته: معني القرآن – المصادر في القرآن – غريب القرآن – النوادر ٠ انظر ترجمته في: طبقات المفسرين للداوودي جـ ٢ ص ٣٦٨ ط دار الكتب العلمية – بيروت، نزهة الألباء في طبقات الأدباء لأبي البركات عبد الرحمن بن محمد الأنباري ص ٩٠ ط دار الفكر العربي – القاهرة ٠

٤ – التحرير والتنوير جـ ٢٨ ص ١٦

وقول الفراء في ذلك: " ثُمَّ يَعُودُونَ لِمَا قَالُواْ " يصلح فيها في العربية: ثم يعودون إلى ما قالوا، وفيما قَالُوا، يريد: يرجعون عما قَالُوا، وَقَدْ يجوز فِي العربية أن تَقُولُ: إن عاد لما فعل، يريد إن فعله مرة أخرى، ويجوز: إن عاد لما فعل: إن نقض ما فعل، وهو كما تَقُولُ: حلف أن يضربك فيكون معناه: حلف لا يضربك وحلف ليضربنك. [١] انتهى

وقد ردَّ الزجاج [٢] – رحمه الله – هذا القول أيضاً فقال: وقال بعض الناس لا تجب الكفَّارة حتى يقول ثانية: أنت عليَّ كظهر أُمِّي، وهذا قول من لا يدري اللغة، وهو خلاف قول أهل العلم أجمعين.

إنما المعنى " ثُمَّ يَعُودُونَ " العودة التي من أجل القول، فلتلك العودة تلزم الكفارة لا لكل عودَة.

والدليل على بطلان هذا القائل – أن " ثُمَّ يَعُودُونَ لِمَا قَالُواْ " أن يقول ثانية: أنت على كظهر أُمِّي – قولُ جميع أهل العلم ومتابعتُه هو إياهم" لِّلَّذِينَ يُؤْلُونَ مِن نِّسَآئِهِمْ تَرَبُّصُ أَرْبَعَةِ أَشْهُرٍ فَإِن فَآءُو " [٣] فأجمعوا أنه ليس " فَإِن فَآءُو " فإن حَلَفُوا ثانية، ومعنى " فَآءُو " في اللغة وعادوا معنى واحد. [٤] انتهى.

---

١ – معاني القرآن للفراء جـ ٣ ص ١٣٩

٢ – هو إبراهيم بن السري بن سهل الزجاج النحوي، كان من أهل الفضل والدين، حَسَن الاعتقاد، كان يخرط الزجاج ثم مال إلى النحو فلزم المبرد وأخذ عنه وعن ثعلب،وعنه علي بن عبد الله بن المغيرة الجوهري وغيره، توفي سنة إحدى عشرة وثلاثمائة ٠ له من التصانيف: معاني القرآن – الاشتقاق – خلق الإنسان – العروض – النوادر، وغيرها ٠ انظر ترجمته في: طبقات المفسرين للداوودي جـ ١ ص ٩، طبقات النحويين واللغويين لمحمد بن الحسن الزبيدي ص ١١١ ط دار المعارف، انباه الرواة على أنباه النُّحاة للوزير جمال الدين علي بن يوسف القفطي جـ ١ ص ١٩٤ ط دار الفكر العربي القاهرة ٠

٣ – البقرة ١٢٦

٤ – معاني القرآن للزجاج جـ ٤ ص ١٣٥

ثم بيَّنت الآيات الكريمة كفارة الظهار وهي إحدى ثلاث:

الكفارة الأولى: تحرير رقبة.

يقول الله – ﷻ – " فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مِّن قَبْلِ أَن يَتَمَآسَّا " أي عتق عبدٍ.

وقد جاء العتق هنا غير مقيِّد للرقبة بكونها مؤمنة أم كافرة، بخلاف التقييد في كفارة القتل الخطأ في قول الله –ﷻ – " وَمَن قَتَلَ مُؤْمِنًا خَطَئًا فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُّؤْمِنَةٍ " [١]

وعلى هذا فقد اختلف العلماء في اشتراط الإيمان في عتق الرقبة هنا، يقول القرطبي [٢] – رحمه الله – " هذه الرقبة يجب أن تكون كاملة سليمة من كل عيبٍ، من كمالها إسلامها عند مالك والشافعي، كالرقبة في كفارة القتل.

وعند أبي حنيفة وأصحابه تجزي الكافرة ومن فيها شائبة رِق كالمكاتبة وغيرها " [٣]

وباشتراط الإيمان في الرقبة قال أبو بكر ابن العربي رحمه الله .[٤]

يقول ابن قدامة – رحمه الله – " لا يجزئه إلا عتق رقبة مؤمنة في كفارة الظهار، وسائر الكفارات، هذا ظاهر المذهب.

وهو قول الحسن، ومالك، والشافعي، وإسحاق، وأبي عبيد.

وعن أحمد، رواية ثانية، أنه يجزئ فيما عدا كفارة القتل من الظهار وغيره، عتق رقبة ذمية.

---

١ – النساء ٩٢

٢ – هو محمد بن أحمد بن أبي بكر بن فَرْح الأنصاري القرطبي، كان من عباد الله الصالحين المشغولين بما يعنيهم من أمور الآخرة، وكان طارح التكلف يمشي بثوب واحد وعلى رأسه طاقية، توفي بمنية بني خصيب بصعيد مصر سنة إحدى وسبعين وستمائة . من تصانيفه: الجامع لأحكام القرآن والمبين لما تضمنه من السنة وآي الفرقان – الأسني في أسماء الله الحسنى .

انظر: طبقات المفسرين للداودي جـ ٢ ص ٧٠، معجم المؤلفين لعمر كحالة جـ ٨ ص ٢٣٩

٣ – تفسير القرطبي جـ ١٧ ص ٢٦٩

٤ – أحكام القرآن لأبي بكر ابن العربي جـ ٤ ص ١٩٤

وهو قول عطاء، والنخعي، والثوري، وأبي ثور، وأصحاب الرأي، وابن المنذر، لأن الله تعالى أطلق الرقبة في هذه الكفارة، فوجب أن يجزئ ما تناوله الإطلاق.

ولنا، ما روى معاوية بن الحكم، قال: كانت لي جارية، فأتيت النبي- ﷺ- فقلت: علي رقبة أفأعتقها ؟

فقال لها رسول الله - ﷺ-: أين الله ؟ قالت: في السماء.

قال: من أنا ؟

قالت: أنت رسول الله.

فقال رسول الله - ﷺ- أعتقها، فإنها مؤمنة }. [١] أ.ه

فعلل جواز إعتاقها عن الرقبة التي عليه بأنها مؤمنة، فدل على أنه لا يجزئ عن الرقبة التي عليه إلا مؤمنة، ولأنه تكفير بعتق، فلم يجز إلا مؤمنة، ككفارة القتل.

والمطلق يحمل على المقيد من جهة القياس إذا وجد المعنى فيه، ولا بد من تقييده، فإنا أجمعنا على أنه لا يجزئ إلا رقبة سليمة من العيوب المضرة بالعمل ضررا بينا، فالتقييد بالسلامة من الكفر أولى " [٢] أ.ه

فالأولى هنا في الرقبة المحررَة اشتراط أن تكون مؤمنة، فبخلاف ما استند إليه القائلون بذلك نجد أن عتق العبيد المؤمنين فيه منفعة للعبد والمسلمين عموماً، أما الكافر فالضرر المتوقع من عتقه أكثر من المنفعة المتوقعة، وربما يكون استرقاقه عند المسلم سبباً في إسلامه بخلاف عتقه، والله أعلم.

---

١ - رواه مسلم من حديث طويل بلفظ " وَكَانَتْ لِي جَارِيَةٌ تَرْعَى غَنَمًا لِي قِبَلَ أُحُدٍ وَالْجَوَّانِيَّةِ فَاطَّلَعْتُ ذَاتَ يَوْمٍ فَإِذَا الذِّيبُ قَدْ ذَهَبَ بِشَاةٍ مِنْ غَنَمِهَا وَأَنَا رَجُلٌ مِنْ بَنِي آدَمَ آسَفُ كَمَا يَأْسَفُونَ لَكِنِّي صَكَكْتُهَا صَكَّةً فَأَتَيْتُ رَسُولَ اللَّهِ - ﷺ- فَعَظَّمَ ذَلِكَ عَلَيَّ قُلْتُ يَا رَسُولَ اللَّهِ أَفَلَا أُعْتِقُهَا ؟ قَالَ ائْتِنِي بِهَا فَأَتَيْتُهُ بِهَا فَقَالَ لَهَا أَيْنَ اللَّهُ قَالَتْ فِي السَّمَاءِ قَالَ مَنْ أَنَا قَالَتْ أَنْتَ رَسُولُ اللَّهِ قَالَ أَعْتِقْهَا فَإِنَّهَا مُؤْمِنَةٌ " في كتاب: المساجد ومواضع الصلاة، باب: تحريم الكلام في الصلاة، حديث رقم ٥٣٧، انظر: صحيح مسلم بشرح النووي جـ ٣ ص ٢٣

٢ - المغني لابن قدامة جـ ٨ ص ٦٢٣

قوله " مِّن قَبْلِ أَن يَتَمَآسَّا "

المقصود بالمس هنا الجماع، وفي هذه الآية أدب من أدب القرآن وهو استعمال الكناية في مثل هذه الألفاظ، كما جاء في قول الله – ﷻ – " أَوْ لَـٰمَسْتُمُ ٱلنِّسَآءَ " [١]

وتحريم الجماع هنا عقوبة للمظاهر زيادة على العقوبة الأولى وهي العتق وكذلك الصيام.

ولعل الحكمة من هذا أن الله –ﷻ – أراد أن يعاقب المظاهر بشيء من جنس ظهاره، وذلك أنه حرَّم على نفسه ما أحل الله –ﷻ – له، فعاقبه الله – ﷻ– بمنعه من وطئها تحريماً مؤقتاً.

يقول ابن قدامة – رحمه الله –: إن المظاهر يحرم عليه وطء امرأته قبل أن يكفر، وليس في ذلك اختلاف إذا كانت الكفارة عتقاً أو صوماً لقول الله تعالى " فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مِّن قَبْلِ أَن يَتَمَآسَّا " وقوله سبحانه " فَمَن لَّمْ يَجِدْ فَصِيَامُ شَهْرَيْنِ مُتَتَابِعَيْنِ مِن قَبْلِ أَن يَتَمَآسَّا " وأكثر أهل العلم على أن التكفير بالإطعام مثل ذلك، وأنه يحرم وطؤها قبل التكفير منهم عطاء، والزهري، والشافعي، وأصحاب الرأي.

وذهب أبو ثور إلى إباحة الجماع قبل التكفير بالإطعام.

وعن أحمد ما يقتضي ذلك، لأن الله – ﷻ– لم يمنع المسيس قبله، كما في العتق والصيام.

ولنا ما روى عكرمة، عن ابن عباس: أن رجلا أتى النبي – ﷺ– فقال: يا رسول الله، إني تظاهرت من امرأتي، فوقعت عليها قبل أن أكفر.

فقال: ما حملك على ذلك، يرحمك الله ؟ قال: رأيت خلخالها في ضوء القمر.

قال: فلا تقربها حتى تفعل ما أمرك الله.[٢]

---

١ – المائدة ٦

٢ – الحديث رواه أصحاب السنن بألفاظ قريبة، انظر: سنن أبي داود كتاب الطلاق، باب: الظهار حديث رقم ٢٢٢١ جـ ٢ ص ٢٤٢ ط دار الفكر – بيروت، سنن الترمذي كتاب الطلاق واللعان، باب: ما جاء في المظاهر يواقع قبل أن يكفر حديث ١١٩٨، انظر: تحفة الأحوذي جـ ٤ ص ٧٣، سنن النسائي كتاب الطلاق، باب: الظهار حديث رقم ٣٤٥٤ انظر: سنن النسائي بحاشية السندي جـ ٦ ص ١٦٧

ولأنه مظاهر لم يكفر، فحرم عليه جماعها، كما لو كانت كفارته العتق أو الصيام، وترك النص عليها لا يمنع قياسها على المنصوص الذي في معناها.

فأما التلذذ بما دون الجماع من القبلة واللمس والمباشرة فيما دون الفرج، ففيه روايتان: إحداهما يحرم.

وهو اختيار أبي بكر وهو قول الزهري، ومالك، والأوزاعي، وأبي عبيد وأصحاب الرأي.

وروي ذلك عن النخعي، وهو أحد قولي الشافعي، لأن ما حرم الوطء من القول حرم دواعيه، كالطلاق والإحرام.

والثانية، لا يحرم.

قال أحمد: أرجو أن لا يكون به بأس، وهو قول الثوري، وإسحاق، وأبي حنيفة، وحكي عن مالك، وهو القول الثاني للشافعي. [١] انتهى.

قوله " ذَٰلِكُمْ تُوعَظُونَ بِهِۦ ۚ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ "

قال الزجاج " ذَٰلِكُمْ " أي ذلكم التغليظ في الكفارة " تُوعَظُونَ بِهِۦ " أي أن غلظ الكفارة وعظ لكم حتى تتركوا الظهار ولا تعاودوه، وقال الزمخشري – رحمه الله – لأن الحكم بالكفارة دليل على ارتكاب الجناية، فيجب أن تتعظوا بهذا الحكم حتى لا تعودوا إلى الظهار وتخافوا عقاب الله عليه، وقال غيره " ذَٰلِكُمْ تُوعَظُونَ بِهِۦ " أي تؤمرون به من الكفارة " وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ " من التكفير وتركه. [٢]

الكفارة الثانية: صيام شهرين متتابعين.

يقول الله – ﷻ – " فَمَن لَّمْ يَجِدْ فَصِيَامُ شَهْرَيْنِ مُتَتَابِعَيْنِ مِن قَبْلِ أَن يَتَمَآسَّا "

" فَمَن لَّمْ يَجِدْ " أي لم يجد المال لتحرير رقبةٍ، أو معه مال ولم يجد الرقبة.

---

١ – المغني لابن قدامة المقدسي جـ ٨ ص ٦٠٧

٢ – معاني القرآن للزجاج جـ ٥ ص ١٣٥، مفاتيح الغيب جـ ١٥ ص ٤٣٩، الكشاف جـ ٤ ص ٤٧٥

وذلك كمن لم يجد الماء، أو وجده ومنعه المرض من الوضوء فله الانتقال إلى التيمم.

والآية الكريمة فيه دلالة على أنَّ المظاهر لا ينتقل إلى الصيام إلا إذا لم يجد الرقبة، ووجه الدلالة أن الله -ﷻ- اشترط الصيام لمن لم يجد طريقاً للكفارة بعتق الرقبة، فدلَّ على أن من وجد الرقبة لا يحل له التكفير بالصيام، والله أعلم.

يقول القرطبي – رحمه الله – " ذكر الله – ﷻ- الكفارة هنا مرتبة، فلا سبيل إلى الصيام إلا عند العجز عن الرقبة، وكذلك لا سبيل إلى الإطعام إلا عند عدم الاستطاعة على الصيام، فمن لم يطق الصيام وجب عليه إطعام ستين مسكيناً "[١] انتهى.

قوله " فَصِيَامُ شَهْرَيْنِ مُتَتَابِعَيْنِ مِن قَبْلِ أَن يَتَمَآسَّا "

وهذا تشديد آخر في الكفارة من حيث النوع والكيفية، فالكفارة بصيام شهرين كاملين وهذا تشديد في نوعها، وزيادة على هذا التشديد في عدد أيام الصيام نجد تشديداً آخر وهو اشتراط التتابع فيها فلا يحل للمكفِّر أن يقطع صومه بغير عذر.

وكما ذكر ابن قدامة – رحمه الله – فقد أجمع أهل العلم على وجوب التتابع في الصيام في كفارة الظهار، وأجمعوا على أن من صام بعض الشهر، ثم قطعه لغير عذر وأفطر، أن عليه استئناف الشهرين، وإنما كان كذلك لورود لفظ الكتاب والسنة به، ومعنى التتابع الموالاة بين صيام أيامها، فلا يفطر فيهما، ولا يصوم عن غير الكفارة.

وقال الخرقي – رحمه الله –" وإن أصابها في ليالي الصوم، أفسد ما مضى من صيامه، وابتدأ الشهرين "

يقول ابن قدامة – رحمه الله –: وبهذا قال مالك، والثوري، وأبو عبيد، وأصحاب الرأي، لأن الله تعالى قال " فَصِيَامُ شَهْرَيْنِ مُتَتَابِعَيْنِ مِن قَبْلِ أَن يَتَمَآسَّا " فأمر بهما خاليين عن وطء، ولم يأت بهما على ما أمر، فلم يجزئه، كما لو وطئ نهارا، ولأنه تحريم للوطء لا يختص النهار، فاستوى فيه الليل والنهار كالاعتكاف. [٢] انتهى.

---

١ – تفسير القرطبي جـ ١٧ ص ٢٧٢

٢ – المغني لابن قدامة المقدسي جـ ٩ ص ٣

وقال مالك: إنه إذا مرض في صيام كفارة الظهار بنى إذا صح، ومذهب أبي حنيفة أنه يبتدئ، وهو أحد قولي الشافعي " [١]

وقد مرَّ الكلام على في قوله " مِن قَبْلِ أَن يَتَمَآسَّا " عند الحديث عن تحرير الرقبة.

الكفارة الثالثة: إطعام ستين مسكيناً.

يقول الله -ﷻ- " فَمَن لَّمْ يَسْتَطِعْ فَإِطْعَامُ سِتِّينَ مِسْكِينًا "

قوله " فَمَن لَّمْ يَسْتَطِعْ " أي لم يستطع الصيام بعدد أيامه أو بكيفيته من التتابع فكفارته حينئذٍ إطعام ستين مسكيناً.

وقد يقول قائلٌ: كيف يستطيع أن يطعم ستين مسكيناً مع أنه لم يكفر بعتق الرقبة وكلاهما متوقف على المال !

أقول: إن الله -ﷻ- قد فرَّق بين الأمرين فقال في الصيام التالي للعتق " فَمَن لَّمْ يَجِدْ " والمعنى – كما سبق وذكرتُ – أنه لم يجد المال لشراء رقبة وعتقها، أو وجد المال ولم يجد الرقبة، فاحتمال قدرته على الإطعام باقٍ مع عدم إيجاده الرقبة نفسها، والله أعلم.

قوله " فَإِطْعَامُ سِتِّينَ مِسْكِينًا "

هذه الكفارة وكفارة العتق فيهما حضٌ على خدمة المجتمع الإسلامي، ذلك أن العتق يترتب عليه تحرير رقبةٍ مؤمنة ينتفع المجتمع بها وتنتفع هي بالحرية، والإطعام كذلك فيه منفعة لفقراء المسلمين، وتلك ميزة ممن مميزات الكفارات في التشريع الإسلامي، إذ أنها لا تكتفي بمجرد عقاب المخطئ على جنايته وإنما فيها عودٌ بالنفع على بقية المجتمع.

حكم المسيس قبل الكفارة بالإطعام:

قد تقدم ذكرُ أقوال العلماء في حكم الجماع قبل الإطعام عند الحديث عن عدم المس قبل العتق، فمنهم من منعه، ومنهم من أباحه لعدم اشتراط عدم المس قبل التكفير هنا كما جاء في كفارة العتق والصيام.

---

١ – الجامع لأحكام القرآن للقرطبي جـ ١٧ ص ٢٧٠

وقد علَّ المانعون لذلك بأنه لما اتفق الجميع على أن الجماع محظور عليه قبل عتق الرقبة وجب بقاء حظره إذا عجز، إذ جائز أن يجد الرقبة قبل الإطعام فيكون الوطء واقعاً قبل العتق. [١]

مقدار الإطعام ونوعه:

اختلف العلماء في بيان مقدار الكفارة هنا ونوعها.

يقول ابن قدامة – رحمه الله –: قدر الطعام في الكفارات كلها مُدٌّ [٢] من بر لكل مسكين، أو نصف صاع [٣] من تمر أو شعير، وممن قال: مدّ بر: زيد بن ثابت، وابن عباس، وابن عمر حكاه عنهم الإمام أحمد، وقال سليمان بن يسار: أدركت الناس إذا أعطوا في كفارة اليمين مداً من حنطة بالمد الأصغر، مدِّ النبي ﷺ.

وقال أبو هريرة: يطعم مداً من أي الأنواع كان، وبهذا قال عطاء، والأوزاعي، والشافعي.

وقال مالك: لكل مسكين مدان من جميع الأنواع، وممن قال: مدان من قمح: مجاهد، وعكرمة، والشعبي، والنخعي.

وقال الثوري وأصحاب الرأي: من القمح مدان، ومن التمر والشعير صاع، لكل مسكين، لقول النبي – ﷺ – في حديث سلمة بن صخر: فأطعم وَسَقاً [٤] من تمر بين ستين مسكيناً " [٥]. انتهى بتصرف.

---

١ – انظر: أحكام القرآن للجصاص جـ ٣ ص ٥٧٠

٢ – المُدُّ ضَرْبٌ من المكاييل وهو رُبُع صاع وهو قَدْرُ مُدِّ النبي – ﷺ – والصاعُ خمسة أرطال، والجمع أمدادٌ، وهو رطل وثلث عند أهل الحجاز والشافعي ورطلان عند أهل العراق وأبي حنيفة، والصاع أربعة أمداد، وقيل إن أصل المد مقدَّر بأن يَمُدَّ الرجل يديه فيملأ كفيه طعاماً. لسان العرب مادة " مدد " جـ ٣ ص ٤٠٠

٣ – والصاعُ: مِكيالٌ لأهل المدينة يأْخذ أربعة أمدادٍ وصاعُ النبيّ – ﷺ – الذي بالمدينة أربعةُ أمدادٍ بمُدِّهم المعروفِ عندهم. لسان العرب مادة " صوع" جـ ٨ ص ٢١٥

٤ – الوَسْقُ بالفتح ستون صاعاً وهو ثلاثمائة وعشرون رطلاً عند أهل الحجاز وأربعمائة وثمانون رطلاً عند أهل العراق. لسان العرب مادة " وسق" جـ ١٠ ص ٣٧٩

٥ – رواه الحاكم في المستدرك بلفظ " فأطعم منها وسقا ستين مسكينا، واستعن بسائرها على عيالك " وقال: هذا صحيح على شرط مسلم، ولم يخرجاه، ووافقه الذهبي في التلخيص انظر: مستدرك الحاكم مع التلخيص جـ ٢ ص ٢٢١ حديث رقم ٢٨١٥

٦ – المغني لابن قدامة جـ ٩ ص ٨

يقول القرطبي – رحمه الله –: من لم يطق الصيام وجب عليه إطعام ستين مسكيناً لكل مسكين مدان بمد النبي ﷺ، وإن أطعم مداً بمد هشام وهو مدان إلا ثلثاً، أو أطعم مداً ونصفاً بمد النبي – ﷺ– أجزأه.

قال أبو عمر بن عبد البر: وأفضل ذلك مدان بمُدِّ النبي – ﷺ– لأن الله – ﷻ– لم يقل في كفارة الظهار " مِنْ أَوْسَطِ مَا تُطْعِمُونَ " [١] فواجب قصد الشبع. [٢]

وقد ذُكِرَ أن وجهة نظر الآخذين بالقول بالمُدَّين بمُدِّ هشام أنه إنما أخذ أهل المدينة بمُدِّ هشام في كفارة الظهار تغليظاً على المتظاهرين الذين شهد الله عليهم أنهم يقولون منكراً من القول وزوراً. [٣]

ولعل ذلك ما أراده الإمام مالك – رحمه الله – بقوله: والكفارات كلها وزكاة الفطر وزكاة العشور كل ذلك بالمد الأصغر مد النبي – ﷺ– إلا الظهار فإن الكفارة فيه بمُدِّ هشام وهو المد الأعظم. [٤] انتهى.

يقول ابن العربي – رحمه الله – " قد بيَّنا في كفارة اليمين أن المعتبر الوسط من الإطعام، وهو مدٌّ بمد النبي ﷺ.

وقال مالك في رواية ابن القاسم وابن عبد الحكم: مد بمد هشام، وهو الشبع هاهنا، لأن الله تعالى أطلق الطعام ولم يذكر الوسط.

وقال في رواية أشهب: مدان بمد النبي ﷺ.

قيل له: ألم تكن قلت: مد هشام، قال: بلى، ومدان بمد النبي – ﷺ– أحب إلي.

يقول ابن العربي: وقع الكلام هاهنا كما ترون في مدِّ هشام، وددت أن يهشم الزمان ذكره، ويمحو من الكتب رسمه، فإن المدينة التي نزل الوحي بها، واستقر بها الرسول – ﷺ– ووقع عندهم الظهار وقيل لهم فيه " فَإِطْعَامُ سِتِّينَ مِسْكِينًا " فهموه

---

١ – المائدة ٨٩

٢ – الجامع لأحكام القرآن للقرطبي جـ ١٧ ص ٢٧٢

٣ – الجامع لأحكام القرآن للقرطبي جـ ١٧ ص ٢٧٢

٤ – موطأ مالك، كتاب الزكاة باب: مكيلة زكاة الفطر جـ ١ ص ٢٤٦

وعرفوا المراد به، وأنه الشبع، وقدره معروف عندهم متقدر لديهم، فقد كانوا يجوعون لحاجة ويشبعون بسنة لا بشهوة ومجاعة، واستمرت الحال على ذلك أيام الخلفاء الراشدين المهديين، حتى نفخ الشيطان في أذن هشام، فرأى مد النبي – ﷺ– لا يشبعه، ولا مثله من حاشيه ونظرائه، فسوّل له أن يتخذ مدا يكون فيه شبعه، فجعله رطلين، وحمل الناس عليه، فإذا ابتل عاد نحو ثلاثة أرطال، فغير السنة، وأذهب محل البركة.

فكان من حق العلماء أن يلغوا ذكره، ويمحوا رسمه، وإذا لم يغيروا أمره، وأما أن يحيلوا على ذكره في الأحكام، ويجعلوه تفسيرا لما ذكره الله ورسوله بعد أن كان مفسرا عند الصحابة الذين نزل عليهم فخطب جسيم " [١]

وقال الشافعي: " لكل مسكين مد من طعام بلده الذي يقتات حنطة أوشعير أو أرز أو تمر أو أقط، وذلك بمد النبي – ﷺ– ولا يعتبر مُدٌّ أُحدِثَ بعده ".[٢]

ومن لطائف هذه الآية الكريمة ما ذكره بعض العلماء أن الله – ﷻ– لم يقل هنا " مِنْ أَوْسَطِ مَا تُطْعِمُونَ أَهْلِيكُمْ " كما ذكر في كفارة اليمين " لَا يُؤَاخِذُكُمُ ٱللَّهُ بِٱللَّغْوِ فِيٓ أَيْمَـٰنِكُمْ وَلَـٰكِن يُؤَاخِذُكُم بِمَا عَقَّدتُّمُ ٱلْأَيْمَـٰنَ ۖ فَكَفَّـٰرَتُهُۥٓ إِطْعَامُ عَشَرَةِ مَسَـٰكِينَ مِنْ أَوْسَطِ مَا تُطْعِمُونَ أَهْلِيكُمْ " [٣] فأطلق الإطعام إشارة إلى أن المقصود بالإطعام هنا الشِّبَع. [٤]

والمعنى أن يعطيهم ما يشبعهم لا ما يسد حاجتهم فقط، والله أعلم.

قوله " ذَٰلِكَ لِتُؤْمِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ۚ وَتِلْكَ حُدُودُ ٱللَّهِ ۗ وَلِلْكَـٰفِرِينَ عَذَابٌ أَلِيمٌ "

---

١ – أحكام القرآن لأبي بكر ابن العربي جـ ٤ ص ١٩٦

٢ – انظر: أحكام القرآن للجصاص جـ ٣ ص ٥٦٨

٣ – المائدة ٨٩

٤ – تفسير القرطبي جـ ١٧ ص ٢٧٢

وهذا عَوْدٌ للتذكر بربوبية الله – ﷻ– وأنه هو وحده الذي له التحليل والتحريم، وأنه لا حق لأحدٍ من خلقه في أن يحلل ما حرَّم الله –ﷻ – ولا أن يحرم ما أحله الله ﷻ.

وذكر الزمخشري – رحمه الله – وجهاً آخر فقال: " ذَٰلِكَ" البيان والتعليم للأحكام والتنبيه عليها لتصدقوا " بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ " في العمل بشرائعه التي شرعها من الظهار وغيره، ورفض ما كنتم عليه في جاهليتكم " وَتِلْكَ حُدُودُ ٱللَّهِ " التي لا يجوز تعدّيها " وَلِلْكَٰفِرِينَ " الذي لا يتبعونها ولا يعملون عليها " عَذَابٌ أَلِيمٌ ".[١]

ولما كان الظهار في صورته هذه معصية ومعاندة لله –ﷻ – ولرسوله – ﷺ– نجد الآيات الكريمة قد جاءت بعد ذلك متحدثة عن الذين يعاندون الله – ﷻ– في أحكامه من الكافرين والمنافقين فقال الله – ﷻ– ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يُحَآدُّونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ كُبِتُوا۟ كَمَا كُبِتَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۚ وَقَدْ أَنزَلْنَآ ءَايَٰتٍۭ بَيِّنَٰتٍ ۚ وَلِلْكَٰفِرِينَ عَذَابٌ مُّهِينٌ ۞ يَوْمَ يَبْعَثُهُمُ ٱللَّهُ جَمِيعًا فَيُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُوٓا۟ ۚ أَحْصَىٰهُ ٱللَّهُ وَنَسُوهُ ۚ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدٌ ﴾[٢]

وقد بدأت الآيات بقول الله –ﷻ – " إِنَّ ٱلَّذِينَ يُحَآدُّونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ كُبِتُوا۟ كَمَا كُبِتَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۚ وَقَدْ أَنزَلْنَآ ءَايَٰتٍۭ بَيِّنَٰتٍ ۚ وَلِلْكَٰفِرِينَ عَذَابٌ مُّهِينٌ "

ووجه مناسبة هذه الآية لما سبقها: أنَّ الآيات السابقة التي تحدثت عن الظهار كان حديثها عمَّا يشبه محآدة الله –ﷻ – بتحريم ما أحله الله ﷻ، ومحآدة رسوله – ﷺ– بفعل ما يخالف ما أُمِرَ بتبليغه للناس، فجاءت هذه الآية وما تلاها من آيات وتحدثت عن نوعٍ آخر من محآدة غير المؤمنين لله –ﷻ – ولرسوله ﷺ.

---

١ – الكشاف جـ ٤ ص ٤٧٦

٢ – المجادلة ٥ – ٦

وكأن الحكمة من هذا الترتيب تنفير المؤمنين من فعل شيء يشبه أفعال الكافرين الذين حآدوا الله -ﷻ- ورسوله - ﷺ- صراحة، ووقع بعض المسلمين فيما يعدُّ قريباً منه وإن خلا من نيَّة التعمد التي وقع المشركون فيها .

وقوله " يُحَآدُّونَ " من المُحادَّة بمعنى المخالفة ومنع ما يجب عليك وكذلك التَّحادُّ، والمُحادَّة المعاداة والمخالفة والمنازعة وهو مُفاعلة من الحدّ كأنّ كل واحد منهما يجاوز حدّه إلى الآخر.[١]

والضمير في قوله " يُحَآدُّونَ " يجوز أن يكون راجعاً إلى المنافقين الذين كانوا يوادون الكافرين، ويحتمل رجوعه إلى سائر الكفار.[٢]

وقد ذُكر أنهم مشركو قريش، أُخزوا يوم الخندق بالهزيمة، كما أخزى من قاتل الرسل من قبلهم.[٣]

ولا مانع من القول برجوعه للجميع من الكافرين والمنافقين فكلهم حآدوا الله -ﷻ- ورسوله ﷺ، فالكافرون حآدوا صراحة بكفرهم تارة وبحربهم لله - ﷻ- ولرسوله - ﷺ- تارة أخرى، وكذلك المنافقون وإن كانت محآدتهم أشد قبحاً وضرراً لأن عداوتهم كانت خافية على كثير من الناس.

ثم بيَّنتِ الآية عاقبة هؤلاء التي توعدهم الله -ﷻ- بها كما حدث مع الأمم الماضية فقال " كُبِتُواْ كَمَا كُبِتَ ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡ "

وقوله " كُبِتُوا " أي أُذلوا وأُخزوا بالعذاب وغُلبوا كما نزل بمن قبلهم ممن حآد الله.[٤]

وهنا نجد أن الله - ﷻ- قد عبَّر عن محادتهم بصيغة المضارع " يُحَآدُّونَ " ثم عبَّر عن

---

١ - لسان العرب مادة " حدد " جـ ٣ ص ١٤٠

٢ - مفاتيح الغيب للرازي جـ ١٥ ص ٤٤٠

٣ - البحر المحيط لمحمد بن يوسف الشهير بأبي حيان الأندلسي جـ ٨ ص ٢٣٣

٤ - انظر: معاني القرآن للزجاج جـ ٥ ص ١٣٦

عقوبتهم بالماضي " كُبِتُوا " وفي ذلك إشارة إلى تجدد المحادة منهم وإلى ثبوت الكبت لهم في كل مرة تتجدد منهم المحادة في المستقبل، والله أعلم ٠

وفي ذلك يقول ابن عاشور – رحمه الله – " وفعل " كُبِتُوا " مستعمل في الوعيد أي سيكبتون، فعبر عنه بالمضي تنبيها على تحقيق وقوعه لصدوره عمن لا خلاف في خبره مثل " أَتَىٰٓ أَمۡرُ ٱللَّهِ " [١]، ولأنه مؤيد بتنظيره بما وقع لأمثالهم، وقرينة ذلك تأكيد الخبر بـ " إِنَّ " لأن الكلام لو كان إخباراً عن كبت وقع لم يكن ثَمَّ مقتضى لتأكيد الخبر، إذ لا ينازع أحد فيما وقع، ويزيد ذلك وضوحا قوله " كَمَا كُبِتَ ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡ " يعني الذين حادوا الله في غزوة الخندق، وما كان من المنافقين فيها فالمراد بصلة " مِن قَبۡلِهِمۡ " من كان من قبلهم من أهل النفاق وهم يعرفونهم " [٢] انتهى بتصرف.

وهذا لا يمنع من القول بعموم الآية لكل من حآد الله –ﷻ – والرسول – ﷺ– سواء أكان في غزوة الخندق أم في كل أمر فيه محآدة لله ورسوله، بل لكل من حآد رسل الله – عليهم السلام – أجمعين، وللعموم جنح الإمام الرازي رحمه الله. [٣]

قوله " وَقَدۡ أَنزَلۡنَآ ءَايَٰتِۭ بَيِّنَٰتٖۚ " والآيات البينات ما جاء في القرآن من الدلائل البيِّنة على صدق النبي – ﷺ– مما أخبرهم به من أحوالهم الخفيَّة التي لا يعلمها سواهم " وَلِلۡكَٰفِرِينَ " بالنبي – ﷺ– بعد هذه الآيات البينات على صدقه " عَذَابٞ مُّهِينٞ " أي عذاب قد اشتمل على الإيلام والإهانة في نفس الوقت، ووصف عذابهم بالمهين لمناسبة وعيدهم بالكبت الذي هو الذل والإهانة. [٤]

---

١ – النحل ١

٢ – التحرير والتنوير جـ ٢٨ ص ٢٣

٣ – مفاتيح الغيب جـ ١٥ ص ٤٤٠

٤ – التحرير والتنوير جـ ٢٨ ص ٢٤

وسيأتي – بإذن الله تعالى – مزيد بيان لعلة الوصف بالمهين عند التعرض لبيان قوله الله –ﷻ– " أَعَدَّ ٱللَّهُ لَهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا ۖ إِنَّهُمْ سَآءَ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ۞ ٱتَّخَذُوٓا۟ أَيْمَـٰنَهُمْ جُنَّةً فَصَدُّوا۟ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ فَلَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ " [١] والتفريق بين العذاب الشديد والعذاب المهين.

قوله " يَوْمَ يَبْعَثُهُمُ ٱللَّهُ جَمِيعًا فَيُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُوٓا۟ ۚ أَحْصَىٰهُ ٱللَّهُ وَنَسُوهُ ۚ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدٌ "

بيان لمحل ها التهديد السابق وهو يوم القيامة " يَوْمَ يَبْعَثُهُمُ ٱللَّهُ جَمِيعًا " أي بعد الموت، وهنا نجد القرآن ينص على بعثهم " جَمِيعًا " إشارة إلى أنهم سوف يُجمعون في صعيد واحد حتى يفضحهم أمام بعضهم وحتى لا ينكر أحدُهم قولَه أو فعله ويلصق التهمة بالآخرين، وفي هذا اللفظ أيضاً إشارة إلى عدم تفلت أحد منهم من قدرة الله ﷻ .

وقد ذكر القرآن بعضاً من مواقف الكافرين مع بعضهم البعض يوم القيامة مما يبين أن حشرهم جميعاً فيه فضح لهم وزيادة مهانة وتعذيب لهم.

وهذا كما ذكر الله –ﷻ– عندما يتبرؤون من بعضهم البعض كما في قوله " وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَندَادًا يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ ٱللَّهِ ۖ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَشَدُّ حُبًّا لِّلَّهِ ۗ وَلَوْ يَرَى ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓا۟ إِذْ يَرَوْنَ ٱلْعَذَابَ أَنَّ ٱلْقُوَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا وَأَنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعَذَابِ ۞ إِذْ تَبَرَّأَ ٱلَّذِينَ ٱتُّبِعُوا۟ مِنَ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوا۟ وَرَأَوُا۟ ٱلْعَذَابَ وَتَقَطَّعَتْ بِهِمُ ٱلْأَسْبَابُ " [٢]

---

١ – المجادلة ١٥ – ١٦

٢ – البقرة ١٦٥، ١٦٦

ومن تمني الأتباع مضاعفة العذاب على من اتبعوهم كما جاء في قـول الله – ﷻ– " إِنَّ ٱللَّهَ لَعَنَ ٱلْكَٰفِرِينَ وَأَعَدَّ لَهُمْ سَعِيرًا ۝ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا ۖ لَّا يَجِدُونَ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا ۝ يَوْمَ تُقَلَّبُ وُجُوهُهُمْ فِى ٱلنَّارِ يَقُولُونَ يَٰلَيْتَنَآ أَطَعْنَا ٱللَّهَ وَأَطَعْنَا ٱلرَّسُولَا۠ ۝ وَقَالُوا۟ رَبَّنَآ إِنَّآ أَطَعْنَا سَادَتَنَا وَكُبَرَآءَنَا فَأَضَلُّونَا ٱلسَّبِيلَا۠ ۝ رَبَّنَآ ءَاتِهِمْ ضِعْفَيْنِ مِنَ ٱلْعَذَابِ وَٱلْعَنْهُمْ لَعْنًا كَبِيرًا " [١]

قوله " أَحْصَىٰهُ ٱللَّهُ وَنَسُوهُ ۚ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدٌ "

تهديد آخر لهؤلاء الكافرين الذين وقعوا في هذه المعاصي بأن الله –ﷻ – محصٍ عليهم أعمالهم وأقوالهم التي عصوه بها، وأنه لا يغيب عنه شيء مما عملوه وقالوه " فَيُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُوٓا۟ " تخجيلاً لهم وتوبيخاً وتشهيراً بحالهم، يتمنون عنده المسارعة بهم إلى النار، لما يلحقهم من الخزى على رؤوس الأشهاد " أَحْصَىٰهُ ٱللَّهُ " أحاط به عدداً لم يفته منه شيء " وَنَسُوهُ " لأنهم تهاونوا به حين ارتكبوه لم يبالوا به لضراوتهم بالمعاصي، وإنما تحفظ معظمات الأمور. [٢]

ومن جميل ما جاء في هذا ما رواه الإمام مسلم [٣] – رحمه الله – في صحيحه – بسنده – عن أبي ذر قال: قال رسول الله – ﷺ– إني لأعلم آخر أهل الجنة دخولاً الجنة

---

١ – الأحزاب ٦٤ – ٦٥ – ٦٦ – ٦٧ – ٦٨

٢ – الكشاف للزمخشري جـ ٤ ص ٤٧٧

٣ – هو مسلم بن الحجاج بن مسلم بن ورد بن كوشاذ القشيري النيسابوري، أحد الأئمة الحفاظ وأعلام المحدثين، ولد سنة أربع ومائتين، ورحل في طلب العلم إلى الحجاز والعراق والشام، وسمع من أحمد بن حنبل وإسحاق بن راهويه، وكان صاحب مال وثروة، وتوفي سنة إحدى وستين ومائة . انظر: شذرات الذهب في أخبار من ذهب لابن العماد جـ ٢ ص ١٤٤ ط دار إحياء التراث العرب، وفيات الأعيان لابن خلكان جـ ٥ ص ١٩ ط دار الثقافة بيروت .

وآخرَ أهل النار خروجاً منها، رجل يؤتى به يوم القيامة فيقال اعرضوا عليه صغار ذنوبه وارفعوا عنه كبارها، فتعرض عليه صغار ذنوبه، فيقال: عملت يوم كذا وكذا كذا وكذا وعملت يوم كذا وكذا كذا وكذا، فيقول: نعم، لا يستطيع أن ينكر وهو مشفق من كبار ذنوبه أن تعرض عليه، فيقال له: فإن لك مكان كل سيئة حسنة، فيقول رب قد عملت أشياء لا أراها ها هنا فلقد رأيت رسول الله - ﷺ- ضحك حتى بدت نواجذه.[1]

وهذا في عصاة المؤمنين الذين تابوا وحسنت توبتهم، وفي هذا يقول الله -ﷻ- " إِلَّا مَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ عَمَلًا صَٰلِحًا فَأُوْلَٰٓئِكَ يُبَدِّلُ ٱللَّهُ سَيِّـَٔاتِهِمْ حَسَنَٰتٍ ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا "[2].

المطلب الثاني: تهديد الله -ﷻ- للمنافقين والكافرين .

بعد أن تحدثتِ الآيات الكريمة في صدر السورة عن الظهار وما يترتب عليه من أحكام، ثم خوّفتِ المؤمنين من الوقوع في أفعال الكافرين بهذا الأمر شرعت السورة في الحديث عن بعض أفعال اليهود والمنافقين التي هي من المحادة والمعاندة فقال الله -ﷻ-

﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۖ مَا يَكُونُ مِن نَّجْوَىٰ ثَلَٰثَةٍ إِلَّا هُوَ رَابِعُهُمْ وَلَا خَمْسَةٍ إِلَّا هُوَ سَادِسُهُمْ وَلَآ أَدْنَىٰ مِن ذَٰلِكَ وَلَآ أَكْثَرَ إِلَّا هُوَ مَعَهُمْ أَيْنَ مَا كَانُوا۟ ۖ ثُمَّ يُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُوا۟ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ... ﴾ إلى قوله ﴿ إِنَّمَا ٱلنَّجْوَىٰ مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ لِيَحْزُنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَلَيْسَ بِضَآرِّهِمْ شَيْـًٔا إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۚ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ ﴾[3]

---

١ - رواه مسلم في كتاب: الإيمان باب أدنى أهل الجنة منزلة فيها ،صحيح مسلم بشرح النووي جـ ٢ ص ٤٨ حديث ١٩٠

٢ - الفرقان ٧٠

٣ - المجادلة من الآية ٧ حتى الآية ١٠

نرى في هذه الآيات الكريمة أنَّ السورة الكريمة قد انتقلت من ذكر أمر المحادة الذي هو عام يشمل كل معصية بالقول أو الفعل إلى ذكر واقعة بعينها ومثال يوضح نوعاً من هذه المحادة فقال الله -ﷻ- " أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ..... "

أي ألم تنظر بعين قلبك فتعلم أن الله - جلّ وعزّ - يعلم ما في السّموات وما في الأرض، لا يخفى عليه شيء من صغيرة ولا كبيرة فكيف يخفى عليه أعمال هؤلاء. [١]

وقوله " أَلَمْ تَرَ " ظاهرها الاستفهام لكن المراد منها تنبيه المخاطب إلى أمرٍ ما.

وبيان ذلك: أن هذه الكلمة قد تُذكر لمن تقدم علمه فتكون للتعجب والتقرير والتذكير، وقد تُذكر لمن لا يكون كذلك فتكون لتعريفه وتعجيبه، وقد اشتهرت في ذلك حتى أُجريت مجرى المثل في هذا الباب بأن شُبِّه حال مَن لم يرَ الشيء بحال من رآه في أنه لا ينبغي أن يخفى عليه وأنه ينبغي أن يتعجب منه، والرؤية إما بمعنى الإبصار مجازاً عن النظر، أو بمعنى الإدراك القلبي متضمناً معنى الوصول والانتهاء [٢] أ.ه

يُراد به العلم، يقول الإمام الرازي - رحمه الله - " الرؤية ههنا العلم، أي ألم تعلم أن الله يسجد له من في السموات ومن في الأرض وإنما عُرِفَ ذلك بخبر الله لا أنه رآه " [٣] انتهى بتصرف يسير .

وتكون الحكمة من التعبير بالرؤية هنا: استحضار صورة هذا الشيء حتى كأنه يراه رأي العين، وأمثلة هذا في القرآن كثيرة، والله أعلم.

فائدة: الاستفهام المسند لله -ﷻ- في القرآن الكريم .

---

١ - إعراب القرآن للنحاس ص ١١١٨

٢ - انظر: الجدول في إعراب القرآن الكريم جـ ص ٥١٦

٣ - تفسير الرازي لقوله تعالي " أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يَسْجُدُ لَهُۥ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِى ٱلْأَرْضِ " الحج آية ١٨ جـ ١١ ص ٢٥٢

الاستفهام الوارد هنا وفي كثير من آيات القرآن الكريم والمنسوب إلى رب العزة – ﷻ– ليس على حقيقته، إذ أنه من المحال أن يستفهم الله –ﷻ– عن شيء.

ذلك أنَّ الاستفهام في أصله يستلزم جهل المستفهِم بما يستفهم عنه، وهذا محال قطعاً على الله ﷻ .

لكن مثل هذا السؤال: كان من قبيل بلاغة القرآن الذي جاء بما عهده القوم من أساليب البلاغة والفصاحة عندهم، ومن هذه الأساليب: الاستفهام لا لغرض معرفة شيءٍ مجهول وإنما لأغراض أخرى، كالتقرير والتوبيخ وغيرها من أساليبهم المعروفة عندهم، كما ذكر السيوطي – رحمه الله – من أنه قد توسعت العرب فأخرجت الاستفهام عن حقيقته لمعان أو أشربته تلك المعاني [١] أ.ه

ويقول الزركشي – رحمه الله –: إن الرب – تعالى – لا يستفهم خلقَه عن شيء، وإنما يستفهمهم ليقررهم ويذكرهم أنهم قد علموا حق ذلك الشيء فهذا أسلوب بديع انفرد به خطاب القرآن وهو في كلام البشر مختلف .

وقد يخرج الاستفهام عن حقيقته بان يقع ممن يعلم ويستغني عن طلب الإفهام عليه [٢] أ.ه

قوله " يَعۡلَمُ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِ " توطئة لما سيأتي من تقرير سَعة علم الله –ﷻ– بتناجي الخلق مؤمنهم وكافرهم، والآية الكريمة تمهد لما سيأتي بعدها من هذا المثال المبين لسعة علم الله – ﷻ– لكل ما خفي من أقوال الكافرين والمنافقين وأفعالهم.

قوله ﴿ مَا يَكُونُ مِن نَّجۡوَىٰ ثَلَٰثَةٍ إِلَّا هُوَ رَابِعُهُمۡ وَلَا خَمۡسَةٍ إِلَّا هُوَ سَادِسُهُمۡ وَلَآ أَدۡنَىٰ مِن ذَٰلِكَ وَلَآ أَكۡثَرَ إِلَّا هُوَ مَعَهُمۡ أَيۡنَ مَا كَانُواْۖ ثُمَّ يُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُواْ

١– انظر: الإتقان للسيوطي الباب السابع والخمسون: الخبر والإنشاء جـ ٢ ص ١٧١ وما بعدها، ط دار الكتب العلمية.

٢– انظر: البرهان للزركشي جـ ٢ ص ٣٢٦

يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ﴾

قوله " مَا يَكُونُ " قرأ أبو جعفر بالتاء على التأنيث، وقرأ الباقون بالياء على التذكير. [١]

التناجي هنا بمعنى الإسرار بالقول، وقد جاء في معنى التناجي أنَّ النَّجْوى والنَّجِيَّ: السِرُّ، والنَّجْوُ: السرُّ بين اثنين، والنجوى والنَّجِيّ : المُتسارُّون، يُقال: نَجَاه نَجْواً ونَجْوى: سآرَّه، وانتجيتُ فلاناً : اختصصتُهُ بمُناجاتي وجعلْتُهُ نجييّ، والنَّجِيُّ: جماعة القوم المتناجين يُسمى به الواحد والجماعة كما يُقال: رجل عَدْلٌ ورجال عَدْلٌ .

والدليل على ذلك قوله تعالى " وَقَرَّبْنَـٰهُ نَجِيًّا " [٢] فوُصِفَ به الواحدُ، وقوله "خَلَصُواْ نَجِيًّا " فوصف به الجماعة، وانتجى القوم: تسارُّوا، وفلانٌ نَجِيُّ فلان: أي يناجيه دون مَن سواه، يقول جرير [٣] :

يعلو النَّجِيُّ إذا النَّجِيُّ أضَجَّهُم * أمْرٌ تضيقُ به الصدورُ جليلُ [٤]

وقد ذكر العلماء في علة العدد المذكور هنا وهو الثلاثة والخمسة أقوال فقيل إن الداعي إلى تخصيص الثلاثة والخمسة أنه سبحانه قصد أن يذكر ما جرت عليه العادة من أعداد أهل النجوى والمخولين للشورى، والمنتدبون لذلك ليسوا بكل أحد، وإنما هم طائفة مجتباة من أولي النهى والأحلام، ورهط من أهل الرأي والتجارب، وأول عددهم الاثنان

---

١ – انظر: النشر في القراءات العشر لابن الجزري جـ ٢ ص ٢٨٧

٢ – سورة مريم آية ٥٢

٣ – هو جرير بن عطية بن حذيفة الخَطَفي يُكنَّى أبا حَزْرة، من تميم، أشْعَرُ أهل عصره، وُلِدَ سنة ٢٨ هـ ومات سنة ١١٠ هـ في اليمامة عاش عمره كله يناضل شعراء زمانه ويُساجلهم، وكان هجائه مُرًّا فلم يثبت أمامه إلا الفرزدق والأخطل، وكان عفيفاً وهو مِنْ أغزل الناس شِعْراً .

انظر: معجم الشعراء جـ ١ ص ٣٩٩ لكامل سلمان الجبوري

٤ – انظر مادة (نجا) في: أساس البلاغة للزمخشري ص ٦٢١، لسان العرب جـ ١٥ ص ٣٠٨، ديوان جرير ص ٥٩٠

فصاعداً إلى خمسة إلى ستة إلى ما اقتضته الحال، فذكر عز وعلا الثلاثة والخمسة وقال " وَلَآ أَدۡنَىٰ مِن ذَٰلِكَ " فدلَّ على الاثنين والأربعة وقال " وَلَآ أَكۡثَرَ " فدلَّ على ما يلي هذا العدد ويقاربه. [١] انتهى بتصرف .

وقد ذُكر أن هذه الآية نزلت في قوم من المنافقين كانوا فعلوا شيئاً سرّاً فأعلم الله -ﷻ- أنه لا يخفى عليه ذلك، وقيل نزلت في اليهود، ورُوى عن ابن عباس -رضي الله عنهما- أنها نزلت في ربيعة وحبيب ابني عمرو وصفوان بن أمية: كانوا يوماً يتحدثون، فقال أحدهم: أترى أن الله يعلم ما نقول ؟ فقال الآخر: يعلم بعضاً ولا يعلم بعضاً، وقال الثالث: إن كان يعلم بعضاً فهو يعلم كله. [٢]

وهذه الأقوال قريبة من بعضها إذ اليهود والمنافقون مشتركون في كثير من الصفات والأفعال التي تنبئ عن الخسة والجبن وعدم الفهم.

" ثُمَّ يُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُواْ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِۚ إِنَّ ٱللَّهَ بِكُلِّ شَيۡءٍ عَلِيمٌ " هذا عوْد للتهديد مرة ثانية بعد قوله في الآية السابقة " يَوۡمَ يَبۡعَثُهُمُ ٱللَّهُ جَمِيعٗا فَيُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُوٓاْۚ أَحۡصَىٰهُ ٱللَّهُ وَنَسُوهُۚ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ شَهِيدٌ "

والإنباء الوارد في قوله " يُنَبِّئُهُم " المراد منه الحساب على الأعمال كما ذكر الإمام الرازي رحمه الله . [٣]

ذلك أن الإنباء لا فائدة منه إلا إذا ترتب عليه حساب على الأعمال التي نبأهم الله -ﷻ- بها .

وهذا يشبه التهديد الوارد في قول الله -ﷻ- ﴿ لَّقَدۡ سَمِعَ ٱللَّهُ قَوۡلَ ٱلَّذِينَ

---

١ - انظر: الجدول في إعراب القرآن لمحمود صافي جـ ٢٨ ص ١٧٣

٢ - تفسير القرطبي جـ ١٧ ص ٢٧٦، الكشاف للزمخشري جـ ٤ ص ٤٧٧

٣ - مفاتيح الغيب للرازي جـ ١٥ ص ٤٤٥

قَالُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ فَقِيرٌ وَنَحۡنُ أَغۡنِيَآءُۘ سَنَكۡتُبُ مَا قَالُواْ وَقَتۡلَهُمُ ٱلۡأَنۢبِيَآءَ بِغَيۡرِ حَقّٖ وَنَقُولُ ذُوقُواْ عَذَابَ ٱلۡحَرِيقِ * ذَٰلِكَ بِمَا قَدَّمَتۡ أَيۡدِيكُمۡ وَأَنَّ ٱللَّهَ لَيۡسَ بِظَلَّٰمٖ لِّلۡعَبِيدِ ﴾ [١]

فقوله " سَنَكۡتُبُ مَا قَالُواْ " تهديد ليس بمجرد الكتابة فقط وإنما هو كناية عن العذاب الذي أعدَّه الله – ﷻ– لهم، ذلك أنَّ الذي يكتب ويسجل على الإنسان قولَه لا يكون قصده من ذلك مجرد الكتابة وإنما غايته من هذه الكتابة عقاب قائل هذه المقالة المكتوبة عليه .

وقوله " إِنَّ ٱللَّهَ بِكُلِّ شَيۡءٍ عَلِيمٌ " تذييل جيء به لبيان استحقاق الله –ﷻ– للوصف السابق وهو سعة علمه بكل شيء والدليل على ذلك علمه بما فعل هؤلاء السابق ذكرُهم، والله أعلم .

ثم انتقلت الآيات الكريمة بعد هذه التوطئة لمثال من أمثلة المحادة لله –ﷻ– ولرسوله – ﷺ– من هؤلاء الكافرين من اليهود والمنافقين، فقال الله – ﷻ– ﴿ أَلَمۡ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ نُهُواْ عَنِ ٱلنَّجۡوَىٰ ثُمَّ يَعُودُونَ لِمَا نُهُواْ عَنۡهُ وَيَتَنَٰجَوۡنَ بِٱلۡإِثۡمِ وَٱلۡعُدۡوَٰنِ وَمَعۡصِيَتِ ٱلرَّسُولِ وَإِذَا جَآءُوكَ حَيَّوۡكَ بِمَا لَمۡ يُحَيِّكَ بِهِ ٱللَّهُ وَيَقُولُونَ فِيٓ أَنفُسِهِمۡ لَوۡلَا يُعَذِّبُنَا ٱللَّهُ بِمَا نَقُولُۚ حَسۡبُهُمۡ جَهَنَّمُ يَصۡلَوۡنَهَاۖ فَبِئۡسَ ٱلۡمَصِيرُ ﴾

وقد سبق القول في قول الله – ﷻ– " أَلَمۡ تَرَ " عند التعرض لتفسير قول الله – ﷻ– " أَلَمۡ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يَعۡلَمُ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِ " بما يغني عن إعادته.

قوله " ٱلَّذِينَ نُهُواْ عَنِ ٱلنَّجۡوَىٰ " نزلت هذه الآية الكريمة تناجي اليهود والمنافقين .

---

١ – آل عمران ١٨١، ١٨٢

قال ابن عباس ومجاهد: نزلت في اليهود والمنافقين وذلك أنهم كانوا يتناجون فيما بينهم دون المؤمنين، وينظرون إلى المؤمنين ويتغامزون بأعينهم فإذا رأى المؤمنون نجواهم قالوا: ما نراهم إلا وقد بلغهم عن أقربائنا وإخواننا الذين خرجوا في السرايا قتل أو موت أو مصيبة أو هزيمة، فيقع ذلك في قلوبهم ويحزنهم فلا يزالون كذلك حتى يقدم أصحابهم وأقرباؤهم، فلما طال ذلك وكثر شكوا إلى رسول الله - ﷺ- فأمرهم أن لا يتناجوا دون المسلمين فلم ينتهوا عن ذلك وعادوا إلى مناجاتهم فأنزل الله تعالى هذه الآية. [١] أ.ه

وتتقوى هذه الرواية بحديث عائشة - رضي الله عنها وعن أبيها - في تفسير قوله الله -ﷻ - " وَإِذَا جَآءُوكَ حَيَّوْكَ بِمَا لَمْ يُحَيِّكَ بِهِ ٱللَّهُ " وأنها في اليهود لأن قوله " نُهُواْ عَنِ ٱلنَّجْوَىٰ " وقوله "حَيَّوْكَ بِمَا لَمْ يُحَيِّكَ بِهِ ٱللَّهُ " فعلان منسوبان إلى فاعل واحدٍ، ويمكن نزولها فيهم وفي غيرهم من المنافقين، والله أعلم.

وفي تعبير القرآن بـ " ٱلَّذِينَ نُهُواْ عَنِ ٱلنَّجْوَىٰ " إشارة إلى عموم النهي لمن نزلت فيهم ولغيرهم، فالعبرة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب، فيتناول النهي هنا كل من وقع في هذا الأمر حتى وإن كان من المسلمين .

وقد يقول قائل: إن هؤلاء الذين نزلت الآية فيهم كانوا يتناجون بما لا يتناجى به المؤمنون من " بِٱلْإِثْمِ وَٱلْعُدْوَٰنِ وَمَعْصِيَتِ ٱلرَّسُولِ " وما جاء بعد ذلك من ذِكْر تحيتهم للنبي - ﷺ- بما لا يفعله المسلمون، فكيف يتناول النهي المؤمنين ؟

أقول: إن التناجي في بعض صوره يكون مخالفاً لأمر النبي - ﷺ- فإذا وقع بالهيئة المنهي عنها كان الخطاب شاملاً لهم.

وقد نهى النبي - ﷺ- عن التناجي الذي يمكن أن يورث العداوة بين المؤمنين، وذلك عندما يتناجى اثنان دون ثالثهما فيظن هذا الثالث أنَّهما يدبران له أمراً يكرهه، أو

---

١ - أسباب النزول للواحدي ص ٣٤٩

أنهما يَرَيانه لا يستحق أن يطَّلع على ما يتحدثان به فيحزنه ذلك، لا سيما وإن كان الثلاثة في مكان واحدٍ لا رابع لهم ٠

يقول رسول الله – ﷺ– " إذا كنتم ثلاثة فلا يتناجى رجلان دون الآخر حتى تختلطوا بالناس، أجْلَ أنَّ ذلك يُحْزنه ".[١]

فالتناجي بهذه الهيئة منهيٌ عنه، فمن فعله فقد وقع في ارتكاب المنهي عنه فيتناوله الخطاب الوارد في الآية الكريمة.

وهذا النهي من الأدب الإسلامي الذي يَصْلحُ به المجتمع المسلم وتشيع به الألفة بين المؤمنين فلا تكون هناك فُرْقة بينهم أو عداوة أو سوء ظنٍّ ٠

قوله " وَإِذَا جَآءُوكَ حَيَّوْكَ بِمَا لَمْ يُحَيِّكَ بِهِ ٱللَّهُ وَيَقُولُونَ فِيٓ أَنفُسِهِمْ لَوْلَا يُعَذِّبُنَا ٱللَّهُ بِمَا نَقُولُ ۚ حَسْبُهُمْ جَهَنَّمُ يَصْلَوْنَهَا ۖ فَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ"

بعد أن ذكرت السورة الكريمة في الآيات السابقة نوعاً من سوء أدب اليهود والمنافقين مع المؤمنين شرعت السورة في ذكر مثال آخر لهم في هذه العداوة والمحادة لكن هذه المرة مع النبي ﷺ٠

فيقول الله –ﷻ– " وَإِذَا جَآءُوكَ حَيَّوْكَ بِمَا لَمْ يُحَيِّكَ بِهِ ٱللَّهُ " فكانوا إذا دخلوا عليه حيَّوه ولووا ألسنتهم كعادتهم في المكر والخداع.

وفي ذلك يروي الإمام البخاري [٢]– رحمه الله – في صحيحه – بسنده – عن عُرْوَةُ أَنَّ عَائِشَةَ – رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا – قَالَتْ: دَخَلَ رَهْطٌ مِنْ الْيَهُودِ عَلَى رَسُولِ اللَّهِ – ﷺ– فَقَالُوا

---

١ – رواه البخاري – واللفظ له – بسنده – عن ابن مسعود – ﷺ– في كتاب: الاستئذان، باب: إذا كانوا ثلاثة فلا بأس بالمسارَّة والمناجاة ٠ انظر: فتح الباري جـ ١١ ص ٨٥، ورواه مسلم في كتاب: السلام، باب: تحريم مناجاة الاثنين دون الثالث ٠ انظر: صحيح مسلم بشرح النووي جـ ٧ ص ٤٢٢

٢ – هو محمد بن إسماعيل بن إبراهيم بن المغيرة البخاري الجعفي، المحدث الحافظ المؤرخ ، ولد سنة أربع وتسعين ومائة، رحل في طلب العلم إلى سائر الأمصار، وكتب بخراسان والشام والعراق ومصر، وتوفي سنة ست وخمسين ومائتين ٠

من تصانيفه: الجامع الصحيح – التاريخ الكبير ٠

انظر ترجمته في: تذكرة الحفاظ للذهبي جـ ٢ ص ١٠٤، معجم المؤلفين جـ ٩ ص ٥٢ ٠

" السَّامُ [١] عَلَيْكَ " فَفَهِمْتُهَا فَقُلْتُ: عَلَيْكُمْ السَّامُ وَاللَّعْنَةُ، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ - ﷺ- مَهْلًا يَا عَائِشَةُ فَإِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الرِّفْقَ فِي الْأَمْرِ كُلِّهِ، فَقُلْتُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ أَوَلَمْ تَسْمَعْ مَا قَالُوا ؟ قَالَ رَسُولُ اللَّهِ - ﷺ- فَقَدْ قُلْتُ وَعَلَيْكُمْ [٢] أ.ه

وقد جاء التصريح بأن ذلك هو سبب نزول الآية في رواية أخري: يقول الحافظ الهيثمي [٣] - رحمه الله - " عن عبد الله بن عمرو أن اليهود كانوا يقولون لرسول الله - ﷺ- سام عليكم، ثم يقولون في أنفسهم " لَوْلَا يُعَذِّبُنَا ٱللَّهُ بِمَا نَقُولُ " فنزلت هذه الآية " وَإِذَا جَآءُوكَ حَيَّوْكَ بِمَا لَمْ يُحَيِّكَ بِهِ ٱللَّهُ " إلى آخر الآية رواه أحمد والبزار والطبراني وإسناده جيد " [٤] أ.ه

وقد جمعوا إلى سوء أدبهم هذا كفراً بالله -ﷻ - فقد كانوا يقولون ذلك القول القبيح للنبي - ﷺ- ويقولون " وَيَقُولُونَ فِيٓ أَنفُسِهِمْ لَوْلَا يُعَذِّبُنَا ٱللَّهُ بِمَا نَقُولُ " فيقولون في أنفسهم لو كان محمد نبياً ما أمهلنا الله بسببه والاستخفاف به. [٥]

فبيَّن الله - ﷻ- لهم أنه لا يعجل لهم العقوبة بل يؤخرها لهم فقال " حَسْبُهُمْ جَهَنَّمُ يَصْلَوْنَهَا ۖ فَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ "

---

١ - السام بمعنى الموت. لسان العرب مادة " سوم " جـ ١٢ ص ٣١٣

٢ - رواه البخاري في كتاب:الاستئذان،باب: كيف الرَّدُّ على أهل الذمة بالسلام. انظر: فتح الباري جـ ١١ ص ٤٤ حديث رقم ٦٢٥٦

٢- هو علي بن بكر الهيثمي، محدث حافظ، ولد سنة خمس وثلاثين وسبعمائة، وأخذ عن التاج السبكي وغيره، وتوفي بالقاهرة سنة سبع وثمانمائة .

من تصنيفه: مجمع الزوائد ومنبع الفوائد - موارد الظمآن في زوائد صحيح ابن حبان .

انظر ترجمته في: حسن المحاضرة في أخبار مصر والقاهرة للسيوطي جـ ١ ص ٣٠٩ ط دار الكتب العلمية - بيروت، معجم المؤلفين جـ ٧ ص ٤٥ .

٤ - مجمع الزوائد ومنبع الفوائد للحافظ علي بن أبي بكر الهيثمي جـ ٧ ص ١٧٨ ط دار الكتب العلمية - بيروت

٥ - القرطبي جـ ١٧ ص ٢٧٨

والحسْبُ الاكتفاء، وفي أسماء الله " الحسيب" أي الكافي، وحسبك درهم أي كفاك وأحسبَني الشيءُ: كفاني [١]

فكأن الله -ﷻ- يقول لهم: يكفيكم عذاب جهنم المؤجل عمَّا تطلبونه من عذاب الدنيا المعجل .

وأصل الصلي لإيقاد النار، ويقال: صلي بالنار وبكذا أي: بُلي بها، واصطلى بها، وصليتُ الشاة: شويتها، وهي مصلية. قال تعالى" ٱصْلَوْهَا ٱلْيَوْمَ " [٢]، وقال: " يَصْلَى ٱلنَّارَ ٱلْكُبْرَىٰ " [٣]، " تَصْلَىٰ نَارًا حَامِيَةً " [٤]، " وَيَصْلَىٰ سَعِيرًا " [٥]" وَسَيَصْلَوْنَ سَعِيرًا "[٦]، "حَسْبُهُمْ جَهَنَّمُ يَصْلَوْنَهَا " [٧]، " سَأُصْلِيهِ سَقَرَ " [٨]، قال الخليل: صلي الكافرُ النارَ: قاسى حرها، وقيل: صلى النار: دخل فيها، وأصلاها غيره، قال " ثُمَّ لَنَحْنُ أَعْلَمُ بِٱلَّذِينَ هُمْ أَوْلَىٰ بِهَا صِلِيًّا " [٩]، قيل: جمع صال، والصلاء يقال للوقود وللشواء. [١٠] أ.ه

وتمنيهم هذا " لَوْلَا يُعَذِّبُنَا ٱللَّهُ بِمَا نَقُولُ " كما ذكر الله - ﷻ- عن قول الكافرين " وَإِذْ قَالُوا ٱللَّهُمَّ إِن كَانَ هَـٰذَا هُوَ ٱلْحَقَّ مِنْ عِندِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا

---

١ - لسان العرب مادة " حسب" جـ ١ ص ٣١٠

٢ - يس٦٤

٣ - الأعلى١٢

٤ - الغاشية٤

٥ - الانشقاق١٢

٦ - النساء١٠

٧ - المجادلة ٨

٨ - المدثر٢٦

٩ - مريم٧٠

١٠ - مفردات ألفاظ القرآن للراغب مادة " صلا " ص ٢٩٣

حِجَارَةً مِّنَ ٱلسَّمَآءِ أَوِ ٱئْتِنَا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ " [١] فردَّ الله -ﷻ- عليهم بقوله " وَمَا لَهُمْ أَلَّا يُعَذِّبَهُمُ ٱللَّهُ وَهُمْ يَصُدُّونَ عَنِ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ وَمَا كَانُوٓا أَوْلِيَآءَهُۥٓ..... " [٢]

وفي ذلك يروي الإمام البخاري – رحمه الله – في صحيحه – بسنده عن أبي موسى – ﷺ– عن النبي – ﷺ– قال" ليس أحدٌ أو ليس شيء أصبر على أذى سمعه من الله إنهم ليدعون له ولدا وإنه ليعافيهم ويرزقهم ".[٣]

فبين الله – ﷻ– أن تأخير عذابه عن العصاة والكافرين ليس من قبيل الغفلة عنهم وإنما هو من قبيل الابتلاء بالغيب الذي غفلوا عنه.

ثم شرعت الآيات في إرشاد المؤمنين إلى وجوب مخالفة اليهود وغير المسلمين عامة في أفعالهم وأقوالهم فقال الله – ﷻ– ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا إِذَا تَنَٰجَيْتُمْ فَلَا تَتَنَٰجَوْا بِٱلْإِثْمِ وَٱلْعُدْوَٰنِ وَمَعْصِيَتِ ٱلرَّسُولِ وَتَنَٰجَوْا بِٱلْبِرِّ وَٱلتَّقْوَىٰ ۖ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ٱلَّذِىٓ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ ۞ إِنَّمَا ٱلنَّجْوَىٰ مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ لِيَحْزُنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَلَيْسَ بِضَآرِّهِمْ شَيْـًٔا إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۚ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ ﴾

أي إذا اضطررتم إلى هذا الأمر فلا تكونوا مثلهم في محتوى التناجي بالإثم والعدوان ولكن تناجوا بالخير، والتناجي يكون كما بيَّن النبي – ﷺ– في الحديث السابق الذكر.

---

١ – الأنفال ٣٢

٢ – الأنفال ٣٤

٣ – البخاري في كتاب الأدب: باب: الصبر على الأذى وقول الله تعالى { إنما يوفى الصابرون أجرهم بغير حساب } جـ ١٠ ص ٥٢٧

وقد ذُكر في الآية أن للعلماء في المخاطبين بها قولين، يقول الإمام الرازي – رحمه الله – (اعلم أن في المخاطبين بقوله " يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ " قولين، وذلك لأنا إن حملنا قوله فيما تقدم " أَلَمْ تَرَ إِلَى الذين نُهُواْ عَنِ النجوى " [١] على اليهود حملنا في هذه الآية قوله " يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ " على المنافقين، أي يا أيها الذين آمنوا بألسنتهم، وإن حملنا ذلك على جميع الكفار من اليهود والمنافقين، حملنا هذا على المؤمنين، وذلك لأنه تعالى لما ذمَّ اليهود والمنافقين على التناجي بالإثم والعدوان ومعصية الرسول، أتبعه بأن نهى أصحابه المؤمنين أن يسلكوا مثل طريقتهم، فقال " فَلاَ تتناجوا بالإثم ") [٢] انتهى.

وعلى أن المخاطب بها هم المنافقون حملها الإمام الزمخشري – رحمه الله – وأجاز حملها على المؤمنين [٣].

وقال الإمام النَّسَفِيُّ [٤] – رحمه الله – " يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ " بألسنتهم وهو خطاب للمنافقين، والظاهر أنه خطاب للمؤمنين ".[٥]

والأقرب في ذلك عندي – والله أعلم – أن المراد بالمخاطبين في الآية هم المؤمنون، ذلك أن الآية بما تحتويه من عظة للمؤمنين بالله – ﷻ – حقاً يبعد أن يكون الخطاب فيها موجهاً للمنافقين الذين يحرصون على مخالفة الأمر، والآية بظاهرها لو حملناها عليهم فكأن الله –ﷻ – ينصحهم مع كفرهم الباطن أن يتأدبوا بأدب الإسلام

---

١ – المجادلة ٨

٢ – مفاتيح الغيب للرازي جـ ١٥ ص ٤٤٧

٣ – الكشاف جـ ٤ ص ٤٧٩

٤ – هو عبد الله بن أحمد بن محمود النَّسَفي أبو البركات صاحب التصانيف المفيدة في الفقه والأصول توفي سنة ٧١٠ هـ

من تصانيفه: عمدة العقائد في الكلام – مدارك التنزيل وحقائق التأويل في التفسير ٠

انظر: الدرر الكامنة لابن حجر جـ ٢ ص ٢٤٧، معجم المؤلفين جـ ٦ ص ٣٢

٥ – تفسير النسفي جـ ٤ ص ١٢٠٣ ط مكتبة نزار مصطفى الباز تحقيق / سيد زكريا، الجامع لأحكام القرآن للقرطبي جـ ١٧ ص ٢٨٠

الظاهر مع العلم ببعدهم عن الامتثال لمثل هذه التنبيهات والأوامر، فكون الخطاب موجهاً للمؤمنين أقرب، ويكون الخطاب – كما ذكر الإمام الألوسي – رحمه الله – " للخُلَّص تعريضاً بالمنافقين ".[١] والله أعلم ٠

وفي الحديث السابق ذكره عن النبي – ﷺ – " إذا كنتم ثلاثة فلا يتناجى رجلان دون الآخر حتى تختلطوا بالناس، أجْلَ أنَّ ذلك يُحْزنه ".[٢]

يقول الإمام القرطبي – رحمه الله –: أي يقع في نفسه ما يحزن لأجله، وذلك بأن يقدر في نفسه أن الحديث عنه بما يكره، أو أنه لم يروه أهلا ليشركوه في حديثهم، إلى غير ذلك من ألقيات الشيطان وأحاديث النفس.

وحصل ذلك كله من بقائه وحده، فإذا كان معه غيره أمن ذلك، وعلى هذا يستوي في ذلك كل الأعداد، فلا يتناجى أربعة دون واحد ولا عشرة ولا ألف مثلا، لوجود ذلك المعنى في حقه، بل وجوده في العدد الكثير أمكن وأوقع، فيكون بالمنع أولى.

وإنما خص الثلاثة بالذكر، لأنه أول عدد يتأتى ذلك المعنى فيه.

وظاهر الحديث يعم جميع الأزمان والأحوال، وإليه ذهب ابن عمر ومالك والجمهور.

وسواء أكان التناجي في مندوب أو مباح أو واجب فإن الحزن يقع به.

وقد ذهب بعض الناس إلى أن ذلك كان في أول الإسلام، لان ذلك كان في حال المنافقين فيتناجى المنافقون دون المؤمنين، فلما فشا الإسلام سقط ذلك.

وقال بعضهم: ذلك خاص بالسفر في المواضع التي لا يأمن الرجل فيها صاحبه، فأما في الحضر وبين العمارة فلا، فإنه يجد من يعينه، بخلاف السفر فإنه مظنة الاغتيال وعدم المغيث، والله أعلم. [٣] أ.ه

فكل هذه المعاني التي ذكرها القرطبي – رحمه الله – تتناسب مع حال المؤمنين دون المنافقين.

---

١ – روح المعاني للألوسي مجلد١٥ جـ ٢٨ ص ٣٨

٢ – رواه البخاري – واللفظ له – في صحيحه – بسنده – عن ابن مسعود – ﷺ – في كتاب: الاستئذان، باب: إذا كانوا ثلاثة فلا بأس بالمسارَّة والمناجاة ٠ انظر: فتح الباري جـ ١١ ص ٨٥

٣ – الجامع لأحكام القرآن للقرطبي جـ ١٧ ص ٢٨١

وإذا حُمل الخطاب على المؤمنين هنا يكون قوله " بِٱلْإِثْمِ وَٱلْعُدْوَٰنِ وَمَعْصِيَتِ ٱلرَّسُولِ " موجهاً إلى كيفية التناجي، فمن المحال أن يتناجى المؤمن بالله بما فيه إثمٌ وعدوان ومعصية للرسول ﷺ، فالمعنى أن يتناجوا بالكيفية التي بينها النبي - ﷺ- بما لا يحزن مؤمناً ٠

أما بالنسبة لمن حمل الخطاب على المنافقين المسلمين ظاهراً فيكون الكلام على ظاهره، إذ هم في تناجيهم لن يتناجوا إلا بما ذكرته الآية، وهذا من غير المستبعد منهم بل هو المتوقع بحكم طبيعة كفرهم ٠

قوله " وَلَيْسَ بِضَآرِّهِمْ شَيْـًٔا إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ " المعنى أن الذين كانوا يتناجون كانوا يوهمون المؤمنين بذلك التناجي أنه قد بلغهم شيء حصل إخوانهم في الغزوات أو غيرها، فبيَّن الله - ﷻ- أن الشيطان والحزن الحاصل بذلك لا يضرهم إلا بإذن الله أي بمشيئته، وهو أن يقضي الموت على أقاربهم أو الغلبة على الغزاة ٠[1]

ثم ختم الله -ﷻ - هذا الأمر بقوله " وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ " أي اتركوا هذه الوساوس من المنافقين وغيرهم وتوكلوا على ربكم في أن يجنبكم سوء مكرهم وخداعهم.

---

١ - انظر: الكشاف جـ ٤ ص ٤٧٩

المطلب الثالث

حديث السورة عن أدب المسلمين في مجلس مع النبي ﷺ.

يقـــــــول الله - ﷻ- ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا قِيلَ لَكُمۡ تَفَسَّحُواْ فِي ٱلۡمَجَٰلِسِ فَٱفۡسَحُواْ يَفۡسَحِ ٱللَّهُ لَكُمۡۖ وَإِذَا قِيلَ ٱنشُزُواْ فَٱنشُزُواْ يَرۡفَعِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنكُمۡ وَٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡعِلۡمَ دَرَجَٰتٖۚ وَٱللَّهُ بِمَا تَعۡمَلُونَ خَبِيرٞ ۝ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا نَٰجَيۡتُمُ ٱلرَّسُولَ فَقَدِّمُواْ بَيۡنَ يَدَيۡ نَجۡوَىٰكُمۡ صَدَقَةٗۚ ذَٰلِكَ خَيۡرٞ لَّكُمۡ وَأَطۡهَرُۚ فَإِن لَّمۡ تَجِدُواْ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٞ رَّحِيمٌ ۝ ءَأَشۡفَقۡتُمۡ أَن تُقَدِّمُواْ بَيۡنَ يَدَيۡ نَجۡوَىٰكُمۡ صَدَقَٰتٖۚ فَإِذۡ لَمۡ تَفۡعَلُواْ وَتَابَ ٱللَّهُ عَلَيۡكُمۡ فَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُواْ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥۚ وَٱللَّهُ خَبِيرُۢ بِمَا تَعۡمَلُونَ ﴾ [١]

مناسبة الآيات لما قبلها:

بعد أن تحدثت السورة الكريمة فيما سبق من آيات عن الأخلاق الذميمـــة لليهـــود والمنافقين في تناجيهم بالإثم والعدوان ونهي المؤمنين عن مشاركتهم في هـــذه الأخـــلاق المذمومة شرعت السورة في بيان الأخلاق التي يجب على المؤمنين أن يراعوهـــا والأدبَ الذي يجب عليهم في حديثهم مع النبي ﷺ.

فقال الله - ﷻ- " يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا قِيلَ لَكُمۡ تَفَسَّحُواْ فِي ٱلۡمَجَٰلِسِ فَٱفۡسَحُواْ يَفۡسَحِ ٱللَّهُ لَكُمۡ "

---

١ - الحشر ١١، ١٢، ١٣

سبب نزول الآية الكريمة:

ذكر العلماء وجوهاً في سبب نزول الآية الكريمة منها ما قاله قتادة: نزلت هذه الآية في مجالس الذكر، وذلك أنهم كانوا إذا رأوا أحدهم مقبلا ضَنّوا بمجالسهم عند رسول الله – ﷺ– فأمرهم الله أن يفسح بعضهم لبعض.

وقال مقاتل بن حيان [١] – رحمه الله –: أنزلت هذه الآية يوم جُمُعة وكان رسول الله – ﷺ– يومئذ في الصفة، وفي المكان ضيق، وكان يكرم أهل بدر من المهاجرين والأنصار، فجاء ناس من أهل بدر وقد سبقوا إلى المجالس، فقاموا حيال رسول الله – ﷺ– فقالوا: السلام عليك أيها النبي ورحمة الله وبركاته، فرد النبي – ﷺ– ثم سلموا على القوم بعد ذلك، فردوا عليهم، فقاموا على أرجلهم ينتظرون أن يوسع لهم، فعرف النبي – ﷺ– ما يحملهم على القيام، فلم يُفْسَح لهم، فشق ذلك على النبي – ﷺ– فقال لمن حوله من المهاجرين والأنصار، من غير أهل بدر: " قم يا فلان، وأنت يا فلان". فلم يزل يقيمهم بعدة النفر الذين هم قيام بين يديه من المهاجرين والأنصار من أهل بدر، فشق ذلك على من أقيم من مجلسه، وعرف النبي – ﷺ– الكراهة في وجوههم، فقال المنافقون: ألستم تزعمون أن صاحبكم هذا يعدل بين الناس ؟ والله ما رأيناه قبلُ عدل على هؤلاء، إن قوما أخذوا مجالسهم وأحبوا القرب لنبيهم، فأقامهم وأجلس من أبطأ عنه، فبلغنا أن رسول الله – ﷺ– قال: "رحم الله رجلا فَسَح لأخيه ".

فجعلوا يقومون بعد ذلك سراعًا، فَتَفَسَّحَ القومُ لإخوانهم، ونزلت هذه الآية يوم الجمعة.

وقيل أيضاً: نزلت في القتال وكان الرجل يأتي الصفّ فيقول: تفسحوا فيأبون لحرصهم على الشهادة . [٢] أ.ه

---

١ – هو مقاتل بن حيَّان النَّبَطي، مولى لبكر بن وائل بن ربيعة، كان يسكن ببلخ، يُكَنَّى أبا بسطام الخزاز، يروي عن مجاهد والضحاك، وهو صدوق فاضل، مات قبل الخمسين ومائة بأرض الهند، خرَّج له الجماعة إلا البخاري . انظر: طبقات المفسرين للداوودي جـ ٢ ص ٣٢٩

٢ – انظر: أسباب النزول للواحدي ص ٣٥٠، تفسير ابن كثير جـ ٨ ص ٢٩، تفسير القرطبي جـ ١٧ ص ٢٨٢، مفاتيح الغيب للرازي جـ ١٥ ص ٤٥٠، تفسير ابن أبي حاتم جـ ١٠ ص ٣٣٤٤ ط المكتبة العصرية – بيروت.

بيان ما في الآيات الكريمة:

اختُلِف في لفظ " ٱلْمَجَٰلِسِ " في أمرين: أولهما: جمعه وإفراده.

ثانيهما: المراد بالمجلس هنا.

أما بالنسبة للقراءة فقد قرأ عاصم " ٱلْمَجَٰلِس " بالجمع، وقرأ الباقون " ٱلْمَجْلِس " بالإفراد.

قال أبو علي: زعموا أنه مجلس النبيّ – ﷺ– فإذا كان كذلك فالوجه الإفراد، ويجوز أن يجمع على هذا على أن تجعل لكلّ جالس مجلساً، أي: موضع جلوس، ويكون المجلس على إرادة العموم مثل قولهم: كثر الدينار والدرهم، فيشهد على هذا جميع المجالس، ومثله في التنزيل " إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَفِى خُسْرٍ "[٢].[١] انتهى

أما بالنسبة للمراد بالمجلس هنا فقد جاء في سبب نزول الآيات أقوال تحملها على مجالس القتال وأخرى على مجالس العلم.

وقد رجح الإمام القرطبي – رحمه الله – العمومَ فقال: " الصحيح في الآية أنها عامة في كل مجلس اجتمع المسلمون فيه للخير والأجر، سواء كان مجلس حرب أو ذكر أو مجلس يوم الجمعة، فإن كل واحد أحق بمكانه الذي سبق إليه، قال ﷺ (من سَبَق إلى ما لم يسبق إليه فهو أحق به "، ولكن يوسع لأخيه ما لم يتأذ فيخرجه الضيق عن موضعه.

وروى البخاري ومسلم عن ابن عمر – ﷺ– عن النبي – ﷺ– قال " لا يقيم الرجلُ الرجلَ من مجلسه ثم يجلس فيه " [٣].

---

١ – العصر ٢

٢ – الحجة للقراء السبعة لأبي علي الفارسي جـ ٤ ص ٣٥

٣ – رواه البخاري في كتاب: الاستئذان، باب لا يقيم الرجلُ الرجلَ من مجلسه . انظر: فتح الباري جـ ١١ ص ٦٤ حديث رقم ٦٢٦٩، ورواه مسلم بلفظ " لا يقيمنَّ...." في كتاب: السلام، باب: تحريم إقامة الإنسان من موضعه المباح الذي سبق إليه. انظر: صحيح مسلم بشرح النووي جـ ٧ ص ٤١٥ حديث رقم ٢١٧٧

وعنه عن النبي – ﷺ – أنه نهى أن يقام الرجل من مجلسه ويجلس فيه آخر، ولكن تفسحوا وتوسعوا.

وكان ابن عمر يكره أن يقوم الرجل من مجلسه ثم يجلس مكانه " [١]. أ.هـ [٢]

ونقل ابن حجر [٣] – رحمه الله – عن بعض أهل العلم قوله " والحكمة في هذا النهي منع استنقاص حق المسلم المقتضي للضغائن، والحث على التواضع المقتضي للمواددة، وأيضا فالناس في المباح كلهم سواء، فمن سبق إلى شيء استحقه، ومن استحق شيئا فأخذ منه بغير حق فهو غصب والغصب حرام، فعلى هذا قد يكون بعض ذلك على سبيل الكراهة وبعضه على سبيل التحريم " [٤] أ.ه

وقال الإمام النووي [٥] – رحمه الله – (" لا يقيمن أحدكم الرجل من مجلسه ثم يجلس فيه " هذا النهي للتحريم، فمن سبق إلى موضع مباح في المسجد وغيره يوم

---

١ – رواه البخاري في كتاب: الاستئذان، باب " إِذَا قِيلَ لَكُمْ تَفَسَّحُواْ فِي ٱلْمَجَٰلِسِ فَٱفْسَحُواْ يَفْسَحِ ٱللَّهُ لَكُمْ ۖ وَإِذَا قِيلَ ٱنشُزُواْ فَٱنشُزُواْ " انظر: فتح الباري جـ ١١ ص ٦٤ حديث رقم ٦٢٧٠

٢ – تفسير القرطبي جـ ١٧ ص ٢٨٣

٣ – هو أحمد بن علي بن محمد بن حجر العسقلاني، ولد بمصر سنة ثلاث وسبعين وسبعمائة، تعلم الأدب والشعر ثم طلب الحديث فسمع الكثير حتى انتهت إليه الرياسة في الحديث، وتوفي سنة اثنتين وخمسين وثمانمائة ٠

من مؤلفاته الكثيرة: فتح الباري بشرح صحيح البخاري – تهذيب التهذيب – لسان الميزان ٠

انظر ترجمته في: حسن المحاضرة للسيوطي جـ ١ ص ٣١٠، شذرات الذهب في أخبار من ذهب لابن العماد جـ ٧ ص ٢٧٠ ط دار الآفاق الجديدة – بيروت ٠

٤ – انظر: فتح الباري بشرح صحيح البخاري جـ ١١ ص ٦٥

٥ – هو يحي بن شرف بن مرى النووي الدمشقي، ولد سنة إحدى وثلاثين وستمائة ببلدة نوى، قدم دمشق فسكن المدرسة الرواحية، وقرأ الفقه والحديث والمنطق والنحو، وولى مشيخة الحديث بعد شهاب الدين أبي شامة، وتوفي بنوى سنة سبع وسبعين وستمائة ٠

من تصانيفه: الأربعون النووية في الحديث – تهذيب الأسماء واللغات ٠

انظر ترجمته في: معجم المؤلفين جـ ١٣ ص ٢٠٢

الجمعة أو غيره لصلاة أو غيرها فهو أحق به، ويحرم على غيره إقامته لهذا الحديث، إلا أن أصحابنا استثنوا منه ما إذا أَلِفَ من المسجد موضعاً يفتي فيه، أو يقرأ قرآنا أو غيره من العلوم الشرعية، فهو أحق به، وإذا حضر لم يكن لغيره أن يقعد فيه، وفي معناه من سبق إلى موضع من الشوارع ومقاعد الأسواق لمعاملة) [١] أ.هـ

وهذا الاستثناء الوارد في كلام الإمام النووي – رحمه الله – يُحمل على العلماء الذين يجلسون في مكان معلوم أنهم يجلسون فيه، وكذا أصحاب المقامات الذين يكون لهم مكان معلوم بين الناس، بخلاف العامة الذين لا يختلف جلوسهم في أي مكان، فمن سبق لموضع فهو أحق به ولا يجوز إقامته منه إلا للعالم صاحب المكان، والله أعلم.

قول الله – ﷻ – " تَفَسَّحُواْ " بمعنى التوسعة، فالفسح والفسيح: الواسع من المكان، والتفسح: التوسع، يقال: فسحت مجلسه فتفسح فيه، ومنه قيل: فسحت لفلان أن يفعل كذا، كقولك: وسعت له، وهو في فسحة من هذا الأمر.

والفُساحةُ: السَّعةُ الواسعةُ، والفُسْحةُ: السَّعةُ، فَسُحَ المكانُ فَساحةً وتَفَسَّحَ وانْفَسَحَ، وهو فَسِيحٌ وفُسُحٌ ومَجْلِسٌ فُسُحٌ، على فُعْل، وفُسْحُمٌ: واسع، وبلد فَسِيحٌ ومَفازة فَسِيحة ومنزل فَسِيح أي واسع، وفي حديث أُم زَرْع: وبيتُها فُساحٌ [٢] أي واسع، ورجل فُسُحٌ وفُسْحُمٌ: واسع الصدر [٣]

قوله " يَفْسَحِ ٱللَّهُ لَكُمْ " من قبيل مقابلة الانصياع لأمر الله – ﷻ – بالتوسعة علي المؤمنين .

وقد ذكر العلماء في محل التوسعة هنا أقوالاً: قيل: في قبوركم، وقيل: في قلوبكم، وقيل: يوسع عليكم في الدنيا والآخرة .[٤]

---

١ – انظر: صحيح مسلم بشرح النووي جـ ٧ ص ٤١٦

٢ – جزء من حديث طويل رواه البخاري في كتاب:النكاح، باب حسن المعاشرة مع الأهل. انظر فتح الباري جـ ٩ ص ١٦٣ حديث رقم ٥١٨٩

٣ – انظر مادة "فسح" في: لسان العرب جـ ٢ ص ٥٤٣، المفردات للراغب ص ٣٩٣

٤ – انظر: تفسير القرطبي جـ ١٧ ص ٢٨٤

وعممَّ الإمامُ الرازي – رحمه الله – فقال: هو مطلق في كل ما يطلب الناس الفُسحة فيه من المكان والرزق والصدر والقبر والجنة .[١]

ثم انتقلت الآية إلى أمر آخر غير التفسح في المجلس مع البقاء فيه، فقال الله – ﷻ – "وَإِذَا قِيلَ ٱنشُزُواْ فَٱنشُزُواْ "

معنى " ٱنشُزُوا " والقراءة فيها:

" ٱنشُزُوا " أي: قوموا.

النِّشْزُ والنَّشَزُ: المَتْنُ المرتفعُ من الأَرض، وهو أَيضاً ما ارتفع عن الوادي إِلى الأَرض وليس بالغليظ، والجمع أَنْشازٌ ونُشُوزٌ.

ونَشَزَ يَنْشُزُ نُشُوزاً: أَشرف على نَشَزٍ من الأَرض، وهو ما ارتفع وظهر، يقال: اقْعُدْ على ذلك النَّشازِ، وأَنْشَزْتُ الشيء إِذا رفعته عن مكانه، ونَشَزَ في مجلسه يَنْشِزُ ويَنْشُزُ، بالكسر والضم: ارتفع قليلاً، "وَإِذَا قِيلَ ٱنشُزُواْ فَٱنشُزُواْ ".

قال الفراء: قرأها الناس بكسر الشين وأهل الحجاز يرفعونها، قال: وهما لغتان.

فقرأها نافع وعاصم وابن عامر بضم الشين، فإذا ابتدؤوا أتوا بهمزة مضمومة، وقرأها الباقون بكسر الشين وإذا ابتدؤوا أتوا بهمزة مكسورة

وقال أبو إسحق: معناه إذا قيل انْهَضُوا فانْهَضُوا وقُومُوا كما قال " ولا مُسْتَأْنِسِينَ لحديثٍ" وقيل في قوله تعالى "وَإِذَا قِيلَ ٱنشُزُواْ فَٱنشُزُواْ " أي قوموا إلى الصلاة أو قضاء حق أو شهادة فانْشُزُوا.[٢] انتهى.

---

١ – مفاتيح الغيب للرازي جـ ١٥ ص ٤٥١

٢ – انظر: لسان العرب مادة " نشز" جـ ٥ ص ٤١٧، معاني القرآن لأبي إسحاق الزجاج جـ ٥ ص ١٣٩، معاني القرآن للفراء جـ ٣ ص ١٤١، تلخيص العبارات بلطيف الإشارات في القراءات السبع لأبي علي الحسن بن خلف بن بَـلَّيمة ٤٢٨– ٥١٤ هـ ص ١٥٦ط دار القبلة للثقافة الإسلامية – جدة، مؤسسة علوم القرآن – بيروت، تحقيق / سُبيع حمزة ط أولى ١٤٠٩ هـ – ١٩٨٨ م.

فالمعنى على هذا: إذا قيل لكم: قوموا للتوسعة على الداخل، فقوموا أو إذا قيل: قوموا من عند رسول الله – ﷺ– ولا تطولوا في الكلام فقوموا ولا تركزوا معه، كما قال " وَلَا مُسْتَـْٔنِسِينَ لِحَدِيثٍۚ إِنَّ ذَٰلِكُمْ كَانَ يُؤْذِي ٱلنَّبِيَّ " [١] ، أو إذا قيل لكم: قوموا إلى الصلاة والجهاد وأعمال الخير وتأهبوا له، فاشتغلوا به وتأهبوا له، ولا تتثاقلوا فيه. [٢] أ.ه

ثم ختم الله –ﷻ– الآية بما يبين علة هذه الأوامر حتى لا يستثقلوا الامتثال لها فقال " يَرْفَعِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنكُمْ وَٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْعِلْمَ دَرَجَٰتٍۚ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ".

فهذا يبين علة أمر الله – ﷻ– لهم بالتفسح أو النشوز، فالمعنى أن هؤلاء الذين أمر الله – ﷻ– بالتفسح أو النشوز لهم يستحقون الإكرام، وهذا يتماشى مع ما قيل في سبب النزول آنفاً من كون الآية نزلت في مجالس الذكر أو أهل بدر .

وهنا يردُ في الآية سؤال: وهو ما السرُ في تقديم ذكر الإيمان على العلم !

أقول – والله أعلم –: العلة في تقديم المؤمنين على أولي العلم والفصل بين الصفتين أن الإيمان مقدم في الوجود على العلم، إذ أنهم جميعاً آمنوا أولاً ثم حصل التفاضل الزائد فيما بينهم بصفة العلم التي جعلت بعضهم أرفع في الدرجة من بعض .

فالمعنى أن الله – ﷻ– رفع درجة المؤمن العالم على المؤمن غير العالم .

وقد قيل إنَّ المعنى: أن الله –ﷻ– يرفع المؤمن على من ليس بمؤمن والعالم على من ليس بعالم .[٣]

---

١ – الأحزاب٥٣

٢ – مفاتيح الغيب للرازي جـ ١٥ ص ٤٥١

٣ – انظر: الجامع لأحكام القرآن للقرطبي جـ ١٧ ص ٢٨٥

لكن يشكل على هذا القول أنَّ الله – ﷻ– قال " مِنكُمْ " فمعنى هذا أن التفضيل فيما بين المؤمنين أنفسهم وليس تفضيلهم على من ليس بمؤمن أصلاً.

فالأقرب أن نقول إن المعنى أن الله – ﷻ– يفضل مؤمناً على مؤمن حسب درجة إيمانه أو حسب نفعه للإسلام، ومعلوم أن المؤمن العالِم أنفع للإسلام من المؤمن غير العالِم، لذا كانت درجته أرفع وأعلى، والله أعلم ٠

وهذا كما جاء في قول النبي – ﷺ– " الْمُؤْمِنُ الْقَوِيُّ خَيْرٌ وَأَحَبُّ إِلَى اللَّهِ مِنْ الْمُؤْمِنِ الضَّعِيفِ وَفِي كُلٍّ خَيْرٌ، احْرِصْ عَلَى مَا يَنْفَعُكَ، وَاسْتَعِنْ بِاللَّهِ وَلَا تَعْجَزْ وَإِنْ أَصَابَكَ شَيْءٌ فَلَا تَقُلْ لَوْ أَنِّي فَعَلْتُ كَانَ كَذَا وَكَذَا وَلَكِنْ قُلْ قَدَرُ اللَّهِ وَمَا شَاءَ فَعَلَ فَإِنَّ لَوْ تَفْتَحُ عَمَلَ الشَّيْطَانِ ".[1]

فالقوة هنا تكون في العلم أو الغنى أو الجسم، فكل واحد من هذه الأصناف مقدَّمٌ على ضده مع اشتراك الجميع في وصف الخيرية.

والآيات والأحاديث في فضل أهل العلم أكثر من أن تُحصى، وقد جاءت الأحاديث المبينة لهذا الفضل منها ما رواه مسلم في صحيحه – بسنده – أَنَّ نَافِعَ بْنَ عَبْدِ الْحَارِثِ لَقِيَ عُمَرَ بِعُسْفَانَ وَكَانَ عُمَرُ يَسْتَعْمِلُهُ عَلَى مَكَّةَ فَقَالَ مَنْ اسْتَعْمَلْتَ عَلَى أَهْلِ الْوَادِي فَقَالَ ابْنَ أَبْزَى قَالَ وَمَنْ ابْنُ أَبْزَى قَالَ مَوْلًى مِنْ مَوَالِينَا قَالَ فَاسْتَخْلَفْتَ عَلَيْهِمْ مَوْلًى قَالَ إِنَّهُ قَارِئٌ لِكِتَابِ اللَّهِ – ﷻ– وَإِنَّهُ عَالِمٌ بِالْفَرَائِضِ ٠

قَالَ عُمَرُ أَمَا إِنَّ نَبِيَّكُمْ – ﷺ– قَدْ قَالَ إِنَّ اللَّهَ يَرْفَعُ بِهَذَا الْكِتَابِ أَقْوَامًا وَيَضَعُ بِهِ آخَرِينَ ٠ [2]

وقد ذكر الإمام الرازي – رحمه الله – في موطن الرفعة هنا قولين فقال:

---

١ – رواه مسلم في كتاب: القدر، باب في الأمر بالقوة وترك العجز والاستعانة بالله وتفويض المقادير لله ٠ انظر: صحيح مسلم بشرح النووي جـ ٨ ص ٤٦٦ حديث رقم ٢٦٦٤

٢ – رواه مسلم في كتاب: صلاة المسافرين وقصرها، باب: فضل من يقوم بالقرآن ويعلمه وفضل من تعلم حكمة من فقه أو غيره فعمل بها وعلمها ٠ انظر: صحيح مسلم بشرح النووي جـ ٣ ص ٣٥٨ حديث رقم ٨١٧

الأول: وهو القول النادر: أن المراد به الرفعة في مجلس الرسول ﷺ.

الثاني: وهو القول المشهور: أن المراد منه الرفعة في درجات الثواب، ومراتب الرضوان.[١]

ولا مانع من إرادة القولين معاً، والله أعلم.

وقد كان الصحابة – ﷺ– حريصين على تقديم أهل العلم في مجالسهم مهما اختلفت أعمارهم ونظرة العامة لهم.

روى البخاري في صحيحه – بسنده – عَنْ سَعِيدِ بْنِ جُبَيْرٍ[٢] عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ: كَانَ عُمَرُ يُدْخِلُنِي مَعَ أَشْيَاخِ بَدْرٍ فَكَأَنَّ بَعْضَهُمْ وَجَدَ فِي نَفْسِهِ فَقَالَ: لِمَ تُدْخِلُ هَذَا مَعَنَا وَلَنَا أَبْنَاءٌ مِثْلُهُ ؟ فَقَالَ عُمَرُ إِنَّهُ مَنْ قَدْ عَلِمْتُمْ، فَدَعَاهُ ذَاتَ يَوْمٍ فَأَدْخَلَهُ مَعَهُمْ فَمَا رُئِيتُ أَنَّهُ دَعَانِي يَوْمَئِذٍ إِلَّا لِيُرِيَهُمْ، قَالَ: مَا تَقُولُونَ فِي قَوْلِ اللَّهِ تَعَالَى " إِذَا جَآءَ نَصْرُ ٱللَّهِ وَٱلْفَتْحُ " ؟ فَقَالَ بَعْضُهُمْ: أُمِرْنَا أَنْ نَحْمَدَ اللَّهَ وَنَسْتَغْفِرَهُ إِذَا نُصِرْنَا وَفُتِحَ عَلَيْنَا، وَسَكَتَ بَعْضُهُمْ فَلَمْ يَقُلْ شَيْئًا، فَقَالَ لِي أَكَذَاكَ تَقُولُ يَا ابْنَ عَبَّاسٍ ؟ فَقُلْتُ: لَا، قَالَ فَمَا تَقُولُ ؟ قُلْتُ: هُوَ أَجَلُ رَسُولِ اللَّهِ – ﷺ– أَعْلَمَهُ لَهُ، قَالَ " إِذَا جَآءَ نَصْرُ ٱللَّهِ وَٱلْفَتْحُ " وَذَلِكَ عَلَامَةُ أَجَلِكَ " فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَٱسْتَغْفِرْهُ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ تَوَّابًا "، فَقَالَ عُمَرُ مَا أَعْلَمُ مِنْهَا إِلَّا مَا تَقُولُ ".[٣] أ.ه

وكذا حديث ابن أبزي المتقدم .

---

١ – مفاتيح الغيب للرازي جـ ١٥ ص ٤٥٢

٢ – هو سعيد بن جبير بن هشام الأسدي، كنيته أبو عبد الله، كان فقيهاً ورعاً، قرأ القرآن على ابن عباس – رضى الله عنهما – وحدث عنه وعن ابن عمر وأبي هريرة، وكان من سادات التابعين علماً وفضلاً وصدقاً وعبادة، قتله الحجاج سنة خمس وتسعين .

انظر ترجمته في: تهذيب التهذيب لابن حجر جـ ٣ ص ٣٠٦، طبقات المفسرين للداوودي جـ ١ ص ١٨٨

٣ – رواه البخاري في كتاب: التفسير، باب: قوله " فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَٱسْتَغْفِرْهُ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ تَوَّابًا " . انظر: فتح الباري جـ ٨ ص ٦٠٦ حديث رقم ٤٩٧٠

فالرفعة هنا يمكن حملها على الرفعة في الدنيا والآخرة، كما قال الإمام القرطبي – رحمه الله –: الثواب في الآخرة والكرامة في الدنيا [١] أ.ه

ثم انتقلت الآيات إلى أدب آخر من الآداب التي وجَّه الله –ﷻ– المؤمنين إلى مراعاتها مع النبي – ﷺ– فقال " يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا نَٰجَيْتُمُ ٱلرَّسُولَ فَقَدِّمُواْ بَيْنَ يَدَيْ نَجْوَىٰكُمْ صَدَقَةً ..... "

سبب نزول الآية الكريمة:

جاء في سبب نزول هذه الآية الكريمة عن علي بن أبي طلحة عن ابن عباس قوله " فَقَدِّمُواْ بَيْنَ يَدَيْ نَجْوَىٰكُمْ صَدَقَةً " وذلك أن المسلمين أكثروا المسائل على رسول الله – ﷺ– حتى شقوا عليه، فأراد الله أن يخفف عن نبيه– ﷺ – فلما قال ذلك صبر كثير من الناس وكفوا عن المسألة، فأنزل الله بعد هذا " ءَأَشْفَقْتُمْ أَن تُقَدِّمُواْ بَيْنَ يَدَيْ نَجْوَىٰكُمْ صَدَقَٰتٍ " [٢] أ.ه

يقول مقاتل بن حيان – رحمه الله –: نزلت الآية في الأغنياء وذلك أنهم كانوا يأتون النبي – ﷺ– فيكثرون مناجاته ويغلبون الفقراء على المجالس حتى كره رسول الله – ﷺ– ذلك من طول جلوسهم ومناجاتهم فأنزل الله تبارك وتعالى هذه الآية وأمر بالصدقة عند المناجاة فأما أهل العسرة فلم يجدوا شيئاً وأما أهل الميسرة فبخلوا واشتد ذلك على أصحاب النبي – ﷺ– فنزلت الرخصة. [٣] أ.ه

وقال علي بن أبي طالب – ﷺ–: إن في كتاب الله لآية ما عمل بها أحد قبلي ولا يعمل بها أحد بعدي آية النجوى " يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا نَٰجَيْتُمُ ٱلرَّسُولَ فَقَدِّمُواْ

---

١ – انظر: الجامع لأحكام القرآن للقرطبي جـ ١٧ ص ٢٨٥

٢ – انظر: تفسير ابن كثير جـ ٨ ص ٣٢

٣ – انظر: أسباب النزول للواحدي ص ٣٥١

بَيْنَ يَدَىْ نَجْوَىٰكُمْ صَدَقَةً " كان عندي دينار فبعته بعشرة دراهم فكنت كلما ناجيت النبي – ﷺ– قدَّمت بيد يدي نجواي درهماً ثم نُسخت فلم يعمل بها أحدٌ فنزلت " ءَأَشْفَقْتُمْ أَن تُقَدِّمُوا۟ بَيْنَ يَدَىْ نَجْوَىٰكُمْ صَدَقَٰتٍ" .[1]

مما تقدم بيانه في سبب نزول الآية الكريمة يتبين لنا أن هذه الآية جاءت كالتأديب لبعض الصحابة الذين أثقلوا على النبي – ﷺ– بكثرة سؤالهم.

وقد بدأت الآية بقوله " يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ " إشارة إلى أن مراعاة مثل هذه الآداب مما يليق بالمؤمنين المتأدبين مع نبيهم ﷺ ، وقد سبق بيان معنى التناجي بما يغني عن إعادته.

وقوله " بَيْنَ يَدَىْ نَجْوَىٰكُمْ " استعارة ممن له يدان، والمعنى: قبل نجواكم، كقول عمر: من أفضل ما أوتيت العربُ الشعرَ، يقدِّمه الرجل أمام حاجته فيستمطر به الكريم ويستنزل به اللئيم، يريد: قبل حاجته. [2]

وهذا التأديب الكريم وإن اشتمل على مشقة في طلب العلم إلا أنه اشتمل على فوائد، وهذا ما أشارت إليه الآية الكريمة في قول الله – ﷻ– " ذَٰلِكَ خَيْرٌ لَّكُمْ وَأَطْهَرُ "

يذكر لنا منها الإمام الرازي – رحمه الله – بعضاً من وجوه الخيرية في هذا الأمر فيقول: " هذا التكليف يشتمل على أنواع من الفوائد:

منها: إعظام الرسول – ﷺ – وإعظام مناجاته فإن الإنسان إذا وجد الشيء مع المشقة استعظمه، وإن وجده بالسهولة استحقره.

ومنها: نفع كثير من الفقراء بتلك الصدقة المقدمة قبل المناجاة وثالثها: قال ابن عباس: إن المسلمين أكثروا المسائل على رسول الله – ﷺ– حتى شقوا عليه، وأراد الله أن

---

١ – رواه الحاكم في المستدرك وقال: هذا صحيح على شرط الشيخين ولم يخرجاه ووافقه الذهبي في التلخيص، انظر: المستدرك مع التلخيص جـ ٢ ص ٥٢٤ ط دار الكتب العلمية – بيروت.

٢ – انظر: الكشاف للزمخشري جـ٤ ص ٤٨١

يخفف عن نبيه، فلما نزلت هذه الآية شح كثير من الناس فكفوا عن المسألة.

ومنها: يحتمل أن يكون المراد منه التخفيف عليه، لأن أرباب الحاجات كانوا يلحون على الرسول ﷺ، ويشغلون أوقاته التي هي مقسومة على الإبلاغ إلى الأمة وعلى العبادة، ويحتمل أنه كان في ذلك ما يشغل قلب بعض المؤمنين، لظنه أن فلاناً إنما ناجى رسول الله - ﷺ- لأمر يقتضي شغل القلب فيما يرجع إلى الدنيا.

ومنها: أنه يتميز به محب الآخرة عن محب الدنيا، فإن المال محك الدواعي.[1] أ.ه

ثم ختمت الآية بقول الله -ﷻ- " فَإِن لَّمْ تَجِدُواْ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ " وهنا يتبادر إلى الذهن سؤال: وهو: إذا كان هؤلاء لا يجدون مالاً يتصدقون به فما مناسبة المغفرة والرحمة على شيء عجزوا عن فعله لأمر لا دخل لهم فيه ؟

أقول – والله أعلم – إن الجواب عن هذا يحتمل أمرين:

أولهما: لو حملنا الأمر على عموم المسلمين بأن نقول إن كثرة السؤال كانت من المسلمين عامة غنيّهم وفقيرهم – كما يُفهم من قول ابن عباس رضي الله عنهما في سبب النزول – نقول: إن المسلمين لما أثقلوا على النبي - ﷺ- بكثرة سؤالهم له أوجبوا على أنفسهم بهذا الأمر هذا التكليف فصار الأمر موجهاً للغني والفقير، أما الغني فلا عذر له في عدم الامتثال، وأما الفقير فقد وجب عليه الأمر لكن لعجزه وعدم قدرته فقد غفر الله -ﷻ – له ورفع عنه الحرج.

ثانيهما: لو حملنا السبب على كثرة سؤال الأغنياء نقول: إن الوجوب هنا على الأغنياء فقط، أما الفقراء فقد غفر الله - ﷻ- لهم ولم يكلفهم بهذا التكليف لعدم تسببهم فيه.

والقول بعموم الأمر للغني والفقير أقرب لأمرين:

أولهما: أن قوله " فَإِن لَّمْ تَجِدُواْ " فيه إشارة إلى أن من المخاطبين بهذا الأمر من لم يجدوا ما يتصدقون به أصلاً، لذا عفا الله عنهم.

---

١ – مفاتيح الغيب للرازي جـ ١٥ ص ٤٥٣

ثانيهما: أن الله – ﷻ– قال في آخر الآية الناسخة بعدها " فَإِذْ لَمْ تَفْعَلُواْ وَتَابَ ٱللَّهُ عَلَيْكُمْ فَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُواْ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ ۚ وَٱللَّهُ خَبِيرُۢ بِمَا تَعْمَلُونَ " فالأمر بإيتاء الزكاة يتوجه للأغنياء الممتلكين للمال، فالآية بيَّنت أن من المخاطبين من عجز ولم يجد، ومنهم من وجد ولم يفعل، والله – تعالى – أعلم.

ثم جاءت الآية التالية مبدوءة بقوله " ءَأَشْفَقْتُمْ أَن تُقَدِّمُواْ بَيْنَ يَدَىْ نَجْوَىٰكُمْ صَدَقَٰتٍ" فنسخت الآيةَ السابقةَ كما تقدم.[١]

"ءَأَشْفَقْتُمْ " أصل الإشفاق في اللغة: الحذر والخوف ومن هذا لا يحل أن لأحدٍ أن يصف الله – ﷻ– بالإشفاق، والإشفاق: عناية مختلطة بخوف، لأن المشفق يحب المشفق عليه ويخاف ما يلحقه، قال تعالى" وهم من الساعة مشفقون" [٢]، فإذا عدي بـ " من " فمعنى الخوف فيه أظهر، وإذا عدي بـ " في" فمعنى العناية فيه أظهر قال تعالى" إِنَّا كُنَّا قَبْلُ فِىٓ أَهْلِنَا مُشْفِقِينَ "[٣]. [٤]

وجمع الصدقات هنا باعتبار المخاطبين. [٥]

والمعنى – كما ذكر الإمام الزمخشري – رحمه الله –: أخفتم تقديم الصدقات لما فيه من الإنفاق الذي تكرهونه، وأنّ الشيطان يعدكم الفقر ويأمركم بالفحشاء " فَإِذْ لَمْ تَفْعَلُواْ " ما أمرتم به وشق عليكم، و" وَتَابَ ٱللَّهُ عَلَيْكُمْ " وعذركم ورخص لكم في أن

---

١ – انظر: الناسخ والمنسوخ للقاسم ابن سلامة ص ٤٥ ط مكتبة المتنبي – القاهرة.

٢ – الأنبياء٤٩

٣ – الطور٢٦

٤ – إعراب القرآن لأبي جعفر النحاس ص ١١٢١ ط، المفردات للراغب مادة " شفق " ص ٢٧٠

٥ – فتح القدير الجامع للشوكاني جـ ٥ ص ٢٥٢ ط دار الوفاء.

لا تفعلوه، فلا تفرطوا في الصلاة والزكاة وسائر الطاعات.[١] أ.ه

قوله " فَإِذْ لَمْ تَفْعَلُواْ " يقول الإمام الأوسي – رحمه الله – و" إِذْ " على بابها، أعني أنها ظرف لما مضى، وقيل: إنها بمعنى " إِذْ " الظرفية للمستقبل كما في قوله تعالى " إِذِ ٱلْأَغْلَٰلُ فِيٓ أَعْنَٰقِهِمْ "[٢]. [٣] أ.ه

فعلى هذا يكون التعبيَر بـ " إِذْ " الدالة على تحقق ما بعدها وهو عدم تقديم الصدقة، وربما يقول قائل: إن هذا يتعارض مع ما جاء في سبب النزول من أن علي بن أبي طالب – ﷺ– قد تصدق، فكيف يتفق هذا مع النفي الوارد هنا والذي يفيد عدم التقديم من الجميع ؟

أقول: قد تكون الحكمة من هذا – والله أعلم – أن الغرض من هذا الأمر أن يقوم به جميع الأغنياء، فلما ترك الجميعُ الأمرَ ولم يفعله إلا واحد منهم فقط صار الأمر كأن الجميع لم يفعله، ذلك أن الغرض هنا أن يفعله كل واحدٍ على حدةٍ، فأخذ الغالب حكمَ الكل، والله أعلم.

قوله " فَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُواْ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ " جعل الأمر بإقامة الصلاة وإيتاء الزكاة وطاعة الله ورسوله في مقابلة التقصير في تقديم الصدقة، وليس الأمر أن الله –ﷻ – جعل الثاني في مقابلة الأول بأن يقول لهم إذا لم تقدموا الصدقة فأقيموا الصلاة، بل المعنى كأن الله – ﷻ– يقول لهم: إذا كان الحال منكم التقصير فيما فُرض عليكم آنفاً من باب التأديب لكم المصحوب بالعلم بعدم قدرتكم على الاستمرار فيه فحافظوا على ما فُرض عليكم على سبيل التأبيد ولا عذر لكم في التقصير فيه.

---

١ – انظر: الكشاف للزمخشري جـ٤ ص ٤٨١

٢ – غافر ٧١

٣ – روح المعاني جـ ٢٨ ص ٤٥

ويشير الإمام الألوسي – رحمه الله – إلى لطيفة دقيقة في معنى الاستمرار في الآية فيقول " وجمع الصدقات لما أن الخوف لم يكن في الحقيقة من تقديم صدقة واحدة لأنه ليس مظنة الفقر بل من استمرار الأمر ".[1] أ.ه

ثم ختم الله –ﷻ – الآية بقوله " وَٱللَّهُ خَبِيرٌۢ بِمَا تَعۡمَلُونَ " أي خبير بمن ترك التصدق مع القدرة عليه خيفة الفقر، وخبير بمن أضمر في نفسه الإذعان أو التكاسل عنه والضيق به.

---

١ – روح المعاني للألوسي جـ ٢٨ ص ٤٥

المطلب الرابع

حديث السورة عن تولي المنافقين لليهود

بعد أن تحدثت السورة عن سوء أدب المنافقين واليهود مع الله -ﷻ- في إسرارهم النجوى وظنهم أن الله -ﷻ- لا يعلم سرهم ونجواهم، وسوء أدبهم مع النبي -ﷺ- عندما كانوا يحيونه ويلوون ألسنتهم بالقول، ونبهتِ المؤمنين إلى وجوب البعد عن مشابهتهم في أقوالهم وأفعالهم، شرعت السورة في فضح هؤلاء المنافقين واليهود فذكرت مثالاً آخر على سفاهة عقولهم وبُغضهم للإسلام والمسلمين فقال الله -ﷻ-

﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ تَوَلَّوْا۟ قَوْمًا غَضِبَ ٱللَّهُ عَلَيْهِم مَّا هُم مِّنكُمْ وَلَا مِنْهُمْ وَيَحْلِفُونَ عَلَى ٱلْكَذِبِ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ۝ أَعَدَّ ٱللَّهُ لَهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا ۖ إِنَّهُمْ سَآءَ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ۝ ٱتَّخَذُوٓا۟ أَيْمَٰنَهُمْ جُنَّةً فَصَدُّوا۟ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ فَلَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ ۝ لَّن تُغْنِىَ عَنْهُمْ أَمْوَٰلُهُمْ وَلَآ أَوْلَٰدُهُم مِّنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ ۖ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ۝ يَوْمَ يَبْعَثُهُمُ ٱللَّهُ جَمِيعًا فَيَحْلِفُونَ لَهُۥ كَمَا يَحْلِفُونَ لَكُمْ ۖ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ عَلَىٰ شَىْءٍ ۚ أَلَآ إِنَّهُمْ هُمُ ٱلْكَٰذِبُونَ ۝ ٱسْتَحْوَذَ عَلَيْهِمُ ٱلشَّيْطَٰنُ فَأَنسَىٰهُمْ ذِكْرَ ٱللَّهِ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ حِزْبُ ٱلشَّيْطَٰنِ ۚ أَلَآ إِنَّ حِزْبَ ٱلشَّيْطَٰنِ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ ۝ إِنَّ ٱلَّذِينَ يُحَآدُّونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ أُو۟لَٰٓئِكَ فِى ٱلْأَذَلِّينَ ۝ كَتَبَ ٱللَّهُ لَأَغْلِبَنَّ أَنَا۠ وَرُسُلِىٓ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ قَوِىٌّ عَزِيزٌ ﴾ [١]

---

١ - سورة المجادلة ١٤ - ١٥ - ١٦ - ١٧ - ١٨ - ١٩ - ٢٠ - ٢١

قال الفراء: نزلت في المنافقين، كانوا يوالون اليهود " مَّا هُم مِّنكُمْ "من المسلمين " وَلَا مِنْهُمْ " على دين المنافقين، هم يهود [١]

وقال السدي[٢] ومقاتل: نزلت في عبد الله بن نبتل المنافق كان يجالس النبي - ﷺ- ثم يرفع حديثه إلى اليهود فبينا رسول الله - ﷺ- في حجرة من حُجَره إذ قال: يدخل عليكم الآن رجل قلبه قلب جبار وينظر بعيني شيطان فدخل عبد الله بن نبتل وكان زرق فقال له رسول الله - ﷺ-: يا غلام تشتمني أنت وأصحابك فحلف بالله ما فعل ذلك فقال له النبي - ﷺ-: فعلت، فانطلق فجاء بأصحابه فحلفوا بالله ما سبوه. فأنزل الله تعالى هذه الآية.

وعن سعيد بن جبير أن ابن عباس حدثه أن رسول الله - ﷺ- كان في ظل حجرة من حجره وعنده نفر من المسلمين قد كاد الظل يقلص عنهم فقال لهم: إنه سيأتيكم إنسان ينظر إليكم بعين شيطان وإذا أتاكم فلا تكلموه فجاء رجل أزرق فدعاه رسول الله - ﷺ- وكلمه فقال: علام تشتمني أنت وفلان وفلان نفر دعا بأسمائهم فانطلق الرجل فدعاهم فحلفوا بالله واعتذروا إليه فأنزل الله تعالى " يَوْمَ يَبْعَثُهُمُ ٱللَّهُ جَمِيعًا فَيَحْلِفُونَ لَهُۥ كَمَا يَحْلِفُونَ لَكُمْ ۖ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ عَلَىٰ شَىْءٍ ۚ أَلَآ إِنَّهُمْ هُمُ ٱلْكَٰذِبُونَ " [٣] أ.ه

وقوله " أَلَمْ تَرَ " مرَّ الكلام عنها عند التعرض لتفسير قول الله - ﷻ- " أَلَمْ تَرَ

---

١ - معاني القرآن للفراء جـ ٣ ص ١٤٢، وانظر: معاني القرآن للزجاج جـ ٥ ص ١٤٠

٢ - هو إسماعيل بن عبد الرحمن السدي الكبير، صاحب التفسير، روى عن ابن عباس وأنس وطائفة، وعنه أبو عوانة والثوري وخلق، أخرج له الجماعة إلا البخاري، مات سنة سبع وعشرين ومائة . انظر: طبقات المفسرين للداودي جـ ١ ص ١١٠

٣ - انظر: أسباب النزول للواحدي ٣٥١، والحديث رواه الحاكم في مستدركه بألفاظ قريبة عن سعيد بن جبير عن ابن عباس جـ ٢ ص ٥٢٤ حديث ٣٧٩٥ وقال: هذا حديث على شرط مسلم ولم يخرجاه، ورواه أحمد وقال ابن كثير عن إسناده " إسناده جيد ولم يخرجوه " انظر: تفسير ابن كثير جـ ٨ ص ٣٤، وقال الهيثمي " رواه أحمد والبزار ورجال الجميع رجال الصحيح " انظر: مجمع الزوائد ومنبع الفوائد للهيثمي جـ ٧ ص ١٨٨، المحرَّر في أسباب النزول للدكتور / خالد بن سليمان المزيني جـ ٢ ص ٩٧٢ ط دار ابن الجوزي -المملكة العربية السعودية - الطبعة الثالثة ١٤٣٣ هـ

أَنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ "

يقول الألوسي – رحمه الله –: " أَلَمْ تَرَ ": تعجيب من حال المنافقين الذين كانوا يتخذون اليهود أولياء ويناصحونهم وينقلون إليهم أسرار المؤمنين. [١]

قوله " إِلَى ٱلَّذِينَ تَوَلَّوْاْ ": الولاية هنا بمعنى النصرة والتحالف .

يقال: وَلِيَ الشيءَ و وَلِيَ عليه وِلايةً ووَلايةً وقيل: الوِلايـة الخُطـة كالإمـارة، والوَلايةُ والوِلاية النُصرة، يقال: هم عليَّ وَلايـةٌ أي مجتمعـون فـي النُصـرة، وقولـه " إِنَّمَا يَنْهَىٰكُمُ ٱللَّهُ عَنِ ٱلَّذِينَ قَـٰتَلُوكُمْ فِى ٱلدِّينِ وَأَخْرَجُوكُم مِّن دِيَـٰرِكُمْ وَظَـٰهَرُواْ عَلَىٰٓ إِخْرَاجِكُمْ أَن تَوَلَّوْهُمْ " [٢] أي تَنْصُروهم يعني أهل مكة، جعل التـولي ههنا بمعنى النَّصْر من الوَلِيّ والمَوْلى وهو الناصر.

والمولي: العصبة والحليف، وهو من انضم إليك فعزَّ بعزّك وامتنع بمَنَعَتك، والتولي بمعنى النصر من الولي، ويقال: تَوَلاَّكَ الله أي وَلِيـكَ الله، ويكـون بمعنـى نَصَـرك الله، والوَلِيّ: المَوْلى، وتَوَلاَّه: اتَّخذه وَلِيّاً [٣] أ.ه

قوله " قَوْمًا غَضِبَ ٱللَّهُ عَلَيْهِ " هم اليهود، كما في قـول الله – ﷻ – " قُلْ هَلْ أُنَبِّئُكُم بِشَرٍّ مِّن ذَٰلِكَ مَثُوبَةً عِندَ ٱللَّهِ ۚ مَن لَّعَنَهُ ٱللَّهُ وَغَضِبَ عَلَيْهِ وَجَعَلَ مِنْهُمُ ٱلْقِرَدَةَ وَٱلْخَنَازِيرَ وَعَبَدَ ٱلطَّـٰغُوتَ ۚ أُوْلَـٰٓئِكَ شَرٌّ مَّكَانًا وَأَضَلُّ عَن سَوَآءِ ٱلسَّبِيلِ " [٤]، وجاء في الحديث عن عدي بن حاتم قال: أتيت النبي – ﷺ – وهو جالس في المسجد فَقَـالَ

---

١ – روح المعاني جـ ٢٨ ص ٤٥

٢ – الممتحنة ٩

٣ – لسان العرب مادة " ولى " جـ ١٥ ص ٤٠٦

٤ – المائدة ٦٠

الْقَوْمُ هَذَا عَدِيُّ بْنُ حَاتِمٍ وَجِئْتُ بِغَيْرِ أَمَانٍ وَلَا كِتَابٍ الخ..... وساق حديثاً طويلاً وفيه قول النبي – ﷺ– " فَإِنَّ الْيَهُودَ مَغْضُوبٌ عَلَيْهِمْ وَإِنَّ النَّصَارَى ضُلَّالٌ " [١] أ.ه

قول الله – ﷻ– " مَّا هُم مِّنكُمْ وَلَا مِنْهُمْ " أي: المنافقون ليسوا من المسلمين ولا من اليهود.[٢]

وهذا كما جاء في قول الله –ﷻ – " إِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ يُخَٰدِعُونَ ٱللَّهَ وَهُوَ خَٰدِعُهُمْ وَإِذَا قَامُوٓاْ إِلَى ٱلصَّلَوٰةِ قَامُواْ كُسَالَىٰ يُرَآءُونَ ٱلنَّاسَ وَلَا يَذْكُرُونَ ٱللَّهَ إِلَّا قَلِيلاً ۝ مُّذَبْذَبِينَ بَيْنَ ذَٰلِكَ لَآ إِلَىٰ هَٰٓؤُلَآءِ وَلَآ إِلَىٰ هَٰٓؤُلَآءِ ۚ وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَلَن تَجِدَ لَهُۥ سَبِيلاً " [٣]

قوله " وَيَحْلِفُونَ عَلَى ٱلْكَذِبِ وَهُمْ يَعْلَمُونَ " أي يعلمون أنه كذب، وهذا التذييل قُصد به بيان تعمدهم الكذب فهم يكذبون عن عمدٍ وليس عن جهل .

يقول الزمخشري – رحمه الله – " وَهُمْ يَعْلَمُونَ " أن المحلوف عليه كذب بحت، فإن قلت: فما فائدة قوله " وَهُمْ يَعْلَمُونَ " ؟ قلت: الكذب: أن يكون الخبر لا على وفاق المخبَر عنه، سواء علم المخبر أو لم يعلم، فالمعنى: أنهم الذين يخبرون وخبرهم خلاف ما يخبرون عنه، وهم عالمون بذلك متعمدون له، كمن يحلف بالغموس) [٤] أ.ه

ثم توعدهم الله –ﷻ – بقوله " أَعَدَّ ٱللَّهُ لَهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا ۖ إِنَّهُمْ سَآءَ مَا كَانُواْ

---

١ – رواه الترمذي في سننه، كتاب التفسير، باب: ومن سورة فاتحة الكتاب، وقال: حسن غريب، انظر: تحفة الأحوذي جـ ٧ ص ٣٧٧ حديث ٢٩٥٤ ط دار الحديث

٢ – زاد المسير لابن الجوزي جـ ٨ ص ١٩٦ ط المكتب الإسلامي – بيروت.

٣ – النساء ١٤٢، ١٤٣

٤ – الكشاف جـ ٤ ص ٤٨٢

يَعْمَلُونَ "

وقد اختلف العلماء في بيان المراد هان بالعذاب الشديد، فذهب الرازي – رحمه الله – إلى أن المراد بالعذاب هنا هو عذاب القبر، وذهب القرطبي – رحمه الله – إلى أنه عذاب جهنم، وعمم الزمخشري – رحمه الله – فقال " نوعاً من العذاب متفاقماً " [١] أ.ه وكلها أقوال متقاربة ٠

وفي آية أخرى نجد قول الله – ﷻ – " إِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ فِى ٱلدَّرْكِ ٱلْأَسْفَلِ مِنَ ٱلنَّارِ وَلَن تَجِدَ لَهُمْ نَصِيرًا " [٢]

فالله –ﷻ – قد توعدهم في الآية – محل البحث – بالعذاب الشديد، وفي الآية الأخرى بالدرك الأسفل من النار والعياذ بالله ٠

وعن علة هذا التشديد عليهم في العذاب يقول الإمام الرازي – رحمه الله – في تفسير قول الله – ﷻ – " إِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ فِى ٱلدَّرْكِ ٱلْأَسْفَلِ مِنَ ٱلنَّارِ " " لما كان المنافق أشد عذاباً من الكافر لأنه مثله في الكفر، وضُم إليه نوعٌ آخر من الكفر، وهو الاستهزاء بالإسلام وبأهله، وبسبب أنهم لما كانوا يظهرون الإسلام يمكنهم الاطلاع على أسرار المسلمين ثم يخبرون الكفار بذلك فكانت تتضاعف المحنة من هؤلاء المنافقين، فلهذه الأسباب جعل الله عذابهم أزيد من عذاب الكفار " [٣] أ.ه

ثم ختم الله – ﷻ – الآية بقوله " إِنَّهُمْ سَآءَ مَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ "

و" مَا " في موضع رفع، أي ساء الشيء الذي يعملونه وهو غشهم المؤمنين ونصحهم الكافرين. [٤]

---

١ – مفاتيح الغيب تفسير سورة النساء جـ ١٥ ص ٤٥٧، تفسير القرطبي جـ ١٧ ص ٢٩٠، الكشاف جـ ٤ ص ٤٨٣

٢ – النساء ١٤٥

٣ – مفاتيح الغيب تفسير سورة النساء جـ ٥ ص ٥٠٠

٤ – إعراب القرآن لأبي جعفر النحاس ص ١١٢٢ ط دار المعرفة – بيروت

وهذا كالتعليل لما سبق من توعدهم بهذا العذاب الشديد، وذلك ببيان سبب استحقاقهم لهذا العذاب الشديد وهو سوء عملهم حيث جمعوا نفاقاً وكفراً، فكانت دركتهم في النار – والعياذ بالله – أردي من الكافرين.

قوله " ٱتَّخَذُوٓاْ أَيۡمَٰنَهُمۡ جُنَّةٗ فَصَدُّواْ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ فَلَهُمۡ عَذَابٞ مُّهِينٞ "

" أَيۡمَٰنَهُمۡ " الأيمان جمع يمين وهي الحَلِفُ، واليمين في الحلف مستعار من اليد اعتبارا بما يفعله المعاهد والمحالف لأنهم كانوا يتماسحون بأيمانهم فيتحالفون،، قال تعالى" أم لكم أيمان علينا بالغة إلى يوم القيامة" [١]، "لا يؤاخذكم الله باللغو في أيمانكم" [٢]، " وإن نكثوا أيمانهم من بعد عهدهم" [٣]، وقولهم: يمين الله؛ فإضافته إليه – ﷻ– هو إذا كان الحلف به، ومولى اليمين: هو من بينك وبينه معاهدة [٤]

قوله: "جُنَّةً " أي سُترة ووقاية.

يقال: جَنَّ الشيءَ يَجُنُّه جَنّاً ستَره، وكلُّ شيء سُتر عنك فقد جُنَّ عنك، وجَنَّه الليلُ يَجُنُّه جَنّاً وجُنوناً وجَنَّ عليه يَجُنُّ بالضم جُنوناً وأَجَنَّه ستَره، وجَنَّ عليه الليلُ أي ستَره وبه سمي الجِنُّ لاسْتِتارِهم واخْتِفائهم عن الأبصار ومنه سمي الجَنينُ لاسْتِتارِه في بطنِ أُمِّه، والجُنَّةُ بالضم ما واراكَ من السِّلاح واسْتَتَرْتَ به منه، والجُنَّةُ السُّتْرة والجمع الجُنَنُ يقال اسْتَجَنَّ بجُنَّة أي اسْتَتَر بسُتْرة.[٥]

والمعنى: أنهم استتروا بهذه الأيمان الكاذبة من عقاب رسول الله – ﷺ– لهم عقاباً لهم على ما فعلوه من شتمه وغير ذلك .

---

١ – القلم ٣٩

٢ – البقرة ٢٢٥

٣ – التوبة ١٢

٤ – أساس البلاغة للزمخشري مادة "يمين" ص ٧١٤، المفردات للراغب ص ٥٧٧

٥ – لسان العرب مادة "جنن" جـ ١٣ ص ٩٢

وهذا كما وصفهم الله في آيات أخرى بقولـه " وَيَحْلِفُونَ بِٱللَّهِ إِنَّهُمْ لَمِنكُمْ وَمَا هُم مِّنكُمْ وَلَٰكِنَّهُمْ قَوْمٌ يَفْرَقُونَ " [١] وقولـه " يَحْلِفُونَ بِٱللَّهِ مَا قَالُوا۟ وَلَقَدْ قَالُوا۟ كَلِمَةَ ٱلْكُفْرِ وَكَفَرُوا۟ بَعْدَ إِسْلَٰمِهِمْ وَهَمُّوا۟ بِمَا لَمْ يَنَالُوا۟ ۚ وَمَا نَقَمُوٓا۟ إِلَّآ أَنْ أَغْنَىٰهُمُ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ مِن فَضْلِهِۦ ۚ فَإِن يَتُوبُوا۟ يَكُ خَيْرًا لَّهُمْ ۖ وَإِن يَتَوَلَّوْا۟ يُعَذِّبْهُمُ ٱللَّهُ عَذَابًا أَلِيمًا فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ ۚ وَمَا لَهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ مِن وَلِىٍّ وَلَا نَصِيرٍ " [٢]

وهنا لنا تساؤل: وهو: هل قوله " فَصَدُّوا۟ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ " يبين أنهم قد أفلحوا بما صنعوا وتوصلوا إلى غرضهم من الصدّ عن سبيل الله ﷻ ؟

يذكر ابن الجوزي – رحمه الله – في هذا المقام قولاً مفاده أنهم بهذه الأيمان الكاذبة قد صدوا عن جهادهم بالقتل وأخذ أموالهم. [٣] أ.ه

والمعنى على هذا: أنَّ هذه الأيمان قد منعتِ المسلمين من قتلهم وأخذ أموالهم فهم بذلك قد صدوا المسلمين عن سبيل الله – ﷻ– وهو الجهاد في سبيل الله.

يقول النحاس – رحمه الله – " أي اتخذوا حلفهم للمؤمنين أنّهم منهم حاجزاً لدمائهم وأموالهم، وهذا معنى " فَصَدُّوا۟ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ " لأن سبيل الله – جلّ وعزّ – في أهل الأوثان أن يقتلوا، وفي أهل الكتاب أن يقتلوا إلّا أن يؤدّوا الجزية فلما أظهر هؤلاء الإيمان وهم كفار صدّوا المؤمنين بما أظهروه عن قتلهم " [٤] أ.ه

ويمكن أن يكون المعنى: أنهم لما حلفوا هذه الأيمان الكاذبة عاملهم النبي – ﷺ– بالظاهر منهم وترك عقابهم، فربما قوى هذا الأمرُ غيرَهم من المنافقين على مواصلة

---

١ – التوبة ٥٦

٢ – التوبة ٧٤

٣ – انظر: زاد المسير لابن الجوزي جـ ٨ ص ١٩٦

٤ – إعراب القرآن للنحاس ص ١١٢٢

نفاقهم ظناً منهم أنَّهم قد خدعوا النبي - ﷺ- بفعلهم هذا، فتسبب هذا الفعل منهم في إضلال غيرهم وصدوهم عن سبيل الله وهو الإيمان بالله - ﷻ- والله أعلم .

ثم ختم الله -ﷻ- الآية بتوعدهم بالعذاب فقال " فَلَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ "

يقول ابن كثير - رحمه الله - " أي: في مقابلة ما امتهنوا من الحَلِف باسم الله العظيم في الأيمان الكاذبة الحانثة " [١]

وقد قال الله - ﷻ- في الآية السابقة " أَعَدَّ ٱللَّهُ لَهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا " وهنا قال " فَلَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ " فنجد من العلماء من فرَّق بين العذابين ومنهم جعلهما نوعاً واحداً .

فذهب الرازي - رحمه الله - إلى أن المراد بالعذاب هنا هو عذاب الآخرة والعذاب في قوله " عَذَابًا شَدِيدًا " عذاب القبر.

يقول الرازي - رحمه الله - " قوله تعالى " فَلَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ " أي عذاب الآخرة، وإنما حملنا قوله " أَعَدَّ ٱللَّهُ لَهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا " على عذاب القبر، وقوله ههنا " فَلَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ " على عذاب الآخرة، لئلا يلزم التكرار، ومن الناس من قال: المراد من الكل عذاب الآخرة، وهو كقوله " ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَصَدُّواْ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ زِدْنَٰهُمْ عَذَابًا فَوْقَ ٱلْعَذَابِ ". [٢] أ.ه

وذهب أبو السعود - رحمه الله - إلى أن العذاب في الآيتين واحد مع اختلاف الوصف، فقال " " فَلَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ " وعيدٌ ثانٍ بوصف آخر لعذابهم " [٣] انتهى.

---

١ - تفسير القرآن العظيم لابن كثير جـ ٨ ص ٣٣

٢ - مفاتيح الغيب للرازي جـ ١٥ ص ٤٥٨

٣ - إرشاد العقل السليم جـ ٥ ص ٢٩٥ ط مكتبة الرياض الحديثة

وكل هذه الأقوال محتملة، لكن قول إمامنا الرازي – رحمه الله – في التفريق بينهما على أساس تجنب التكرار يمكن أن نبيِّنه بأنه لا يلزم من القول بكونهما يصدقان على عذابٍ واحدٍ تكرارٌ، ذلك أن وصف العذاب بالشدة يختلف عن وصفه بالمُهين، وبيان ذلك أن وصف الشدة يبين مدى عِظَم هذا العذاب، أما الوصف بالمُهين فهو يبين أن هذا العذاب ليس قاصراً على كونه عذاباً شديداً فقط بل هو عذاب يشتمل على إهانة لهذا المُعَذَّب، فلا تكرار بل وصف له بعدة أوصاف مختلفة لبيان عِظَمه، والله أعلم.

وقد ذكر إمامنا الرازي – رحمه الله – كلاماً جميلاً في حكمة وصف العذاب بالمُهين في قول الله –ﷻ– " وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَشْتَرِى لَهْوَ ٱلْحَدِيثِ لِيُضِلَّ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَيَتَّخِذَهَا هُزُوًا ۚ أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ " [١] حيث قال (قوله " مُّهِينٌ " إشارة إلى أمر يُفهم منه الدوام، وذلك لأن الملك إذا أمر بتعذيب عبد من عبيده، فالجلاد إن علم أنه ممن يعود إلى خدمة الملك ولا يتركه الملك في الحبس يكرمه ويخفف من تعذيبه، وإن علم أنه لا يعود إلى ما كان عليه وأمره قد انقضى، فإنه لا يكرمه.

فقوله " عَذَابٌ مُّهِينٌ " إشارة إلى هذا، وبه يُفرَّق بين عذاب المؤمن وعذاب الكافر، فإن عذاب المؤمن ليطهر فهو غير مهين)[٢] أ.هـ.

فهو هنا جعل الإهانة في دوام العذاب، فالعذاب الذي لن يدوم لا يوصف بأنه مُهين، حسب قوله رحمه الله .

كذلك فإن العذاب في نفسه قد يكون مُهيناً كما جاء في كيفية حشر الكافرين ومن على شاكلتهم، من ذلك قوله الله –ﷻ– " ٱلَّذِينَ يُحْشَرُونَ عَلَىٰ وُجُوهِهِمْ إِلَىٰ جَهَنَّمَ أُوْلَٰٓئِكَ شَرٌّ مَّكَانًا وَأَضَلُّ سَبِيلًا " [٣]، قال قتادة حدثنا أَنَسُ بْنُ مَالِكٍ – ﷺ–

---

١ – لقمان ٦

٢ – مفاتيح الغيب جـ ١٢ ص ٤٩٨

٣ – الفرقان ٣٤

أَنَّ رَجُلًا قَالَ يَا نَبِيَّ اللَّهِ يُحْشَرُ الْكَافِرُ عَلَى وَجْهِهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ! قَالَ أَلَيْسَ الَّذِي أَمْشَاهُ عَلَى الرِّجْلَيْنِ فِي الدُّنْيَا قَادِرًا عَلَى أَنْ يُمْشِيَهُ عَلَى وَجْهِهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ؟ قَالَ قَتَادَةُ بَلَى وَعِزَّةِ رَبِّنَا. [١] أ.ه

قوله " لَّن تُغْنِيَ عَنْهُمْ أَمْوَٰلُهُمْ وَلَآ أَوْلَٰدُهُم مِّنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا ۖ أُوْلَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ ۖ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ "

وفي الآية الكريمة مسائل بيانها كالتالي:

المسألة الأولى: سبب نزول الآية الكريمة.

جاء عن مقاتل: أن هذه الآية نزلت في المنافقين لما قالوا: إن محمداً يزعم أنه يُنصَر يوم القيامة، لقد شقينا إذا، فوالله لنُنصرنَّ يوم القيامة بأنفسنا وأولادنا وأموالنا إن كانت قيامة. [٢]

ومثل هذا التوعد قد جاء للكافرين في قول الله -ﷻ- " إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَن تُغْنِيَ عَنْهُمْ أَمْوَٰلُهُمْ وَلَآ أَوْلَٰدُهُم مِّنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا ۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمْ وَقُودُ ٱلنَّارِ " [٣]

يقول الإمام الرازي – رحمه الله – في تفسير هذه الآية " اعلم أن كمال العذاب هو أن يزول عنه كل ما كان منتفعاً به، ثم يجتمع عليه جميع الأسباب المؤلمة.

أما الأول: فهو المراد بقوله " لَن تُغْنِيَ عَنْهُمْ أَمْوَٰلُهُمْ وَلَآ أَوْلَٰدُهُم " وذلك لأن المرء عند الخطوب والنوائب في الدنيا يفزع إلى المال والولد، فهما أقرب الأمور التي يفزع المرء إليها في دفع الخطوب فبيّن الله – تعالى – أن صفة ذلك اليوم مخالفة

---

١ – البخاري في كتاب التفسير، باب قوله " ٱلَّذِينَ يُحْشَرُونَ عَلَىٰ وُجُوهِهِمْ إِلَىٰ جَهَنَّمَ أُوْلَٰٓئِكَ شَرٌّ مَّكَانًا وَأَضَلُّ سَبِيلًا " انظر: فتح الباري جـ ٨ ص ٣٥٠ حديث ٤٧٦٠

٢ – تفسير القرطبي جـ ١٧ ص ٢٩٠

٣ – آل عمران ٦

لصفة الدنيا لأن أقرب الطرق إلى دفع المضار إذا لم يتأت في ذلك اليوم، فما عداه بالتعذر أولى، ونظير هذه الآية قوله تعالى " يَوْمَ لَا يَنفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ ۞ إِلَّا مَنْ أَتَى ٱللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ " [١] وقولـــــــــه " ٱلْمَالُ وَٱلْبَنُونَ زِينَةُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ وَٱلْبَٰقِيَٰتُ ٱلصَّٰلِحَٰتُ خَيْرٌ عِندَ رَبِّكَ ثَوَابًا " [٢] وقولـــه " وَنَرِثُهُۥ مَا يَقُولُ وَيَأْتِينَا فَرْدًا " [٣] وقوله " وَلَقَدْ جِئْتُمُونَا فُرَٰدَىٰ كَمَا خَلَقْنَٰكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَتَرَكْتُم مَّا خَوَّلْنَٰكُمْ وَرَآءَ ظُهُورِكُمْ " [٤] [٥] أ.ه

المسألة الثانية: علة تقديم الأموال على الأولاد:

قد تكون الحكمة من تقديم الأموال على الأولاد أن الواحد منهم في الدنيا قد يضنُّ بولده في فداء نفسه فيقدم ماله في الفداء، كمن يفتدي بعبيده أو من يستأجرهم لذلك، فروعي التقديم في هذه الآية لذلك من باب الرد عليهم حسب ما تعودوه في الدنيا وظنوا إمكانه في الآخرة، والله – ﷻ– أعلم.

المسألة الثالثة: علة وصفهم بـــ " هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ " بعد وصفهم بأصحاب النار.

قد يظنُّ ظانٌّ أن قوله " هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ " فيه تكرار على اعتبار أنَّ قول الله –ﷻ– " أُوْلَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ " كان كافياً في إفادة دوامهم في النار.

أقول: قد تكون الحكمة من ذلك: أن صاحب الشيء يمكن أن يفارقه، أو أن يفارقه الشيءُ نفسُه فلن يدوم أحدهما للآخر، فجاء بهذا الوصف ليبين أن الكافر والعذاب بينهما

---

١ – الشعراء: ٨٨، ٨٩

٢ – الكهف ٤٦

٣ – مريم ٨٠

٤ – الأنعام ٩٤

٥ – مفاتيح الغيب جـ ٤ ص ١٠٦

تلازمٌ دون انقطاع فكلاهما ملازمٌ للآخر، فلا الكافر يخرج من النار، ولا النار تفارق الكافر، بخلاف عصاة المؤمنين الذين يُعذبون في النار على قدر ذنوبهم ثم يأذن الله – ﷻ– في إخراجهم منها، فأولئك لا يوصفون بأنهم أصحابها حتى وإن دخلوها فدخولهم فيها مؤقت، والله أعلم ٠

فقد روى البخاري – رحمه الله – في صحيحه – بسنده – عن أنس بن مالك –ﷺ – أنَّ رسول الله – ﷺ– قال " يخرج قوم من النار بعدما مَسَّهم منها سَفْعٌ [١] فيدخلون الجنَّة، فيسميهم أهلُ الجنة: الجهنميين " [٢]

فهذا الحديث يُثْبت أنَّ بعض مَنْ سيدخلون النار لن يُخَلَّدُوا فيها، وهؤلاء هم عُصاة المؤمنين الذين سيدخلونها كي يُعاقبوا فيها على قَدْر ذنوبهم ٠

أما الكافرون فهم مخلدون فيها دون انقطاع.

روى البخاري في صحيحه – بسنده – عن أبي سعيد الخُدْري – ﷺ– أنَّ رسول الله – ﷺ– قال " يُؤتى بالموت كهيئة كبش أملح، فينادي مناد: يا أهل الجنة، فيشرئبون [٣] وينظرون ٠

فيقول: هل تعرفون هذا ؟ فيقولون: نعم هذا الموت، وكلهم قد رآه ٠

ثم ينادي: يا أهل النار، فيشرئبون وينظرون ٠

فيقول: هل تعرفون هذا ؟ فيقولون: نعم هذا الموت وكلهم قد رآه ٠

فيُذبح، ثم يقول: يا أهل الجنة خلود فلا موت، ويا أهل النار خلود فلا موت، ثم قرأ " وَأَنذِرْهُمْ يَوْمَ ٱلْحَسْرَةِ إِذْ قُضِىَ ٱلْأَمْرُ وَهُمْ فِى غَفْلَةٍ " وهؤلاء في غفلة أهل الدنيا "

---

١ – السفع: هو السواد والشُحوب، يقال: سفعته النارُ والشمس أي غيَّرت لون بشرته وسوَّدته ٠
انظر: لسان العرب مادة (سفع) جـ ٨ ص ١٥٧

٢ – رواه البخاري في كتاب: الرقاق، باب: صفة الجنة والنار ٠
انظر: فتح الباري جـ ١١ ص ٤٢٤

٣ – أي يرفعون رؤوسهم، يقال: اشرأبَّ الرجل للشيء: مدَّ عنقه إليه وارتفع وعلا، وكل رافع رأسه مشرئب ٠ انظر: لسان العرب مادة (شرب) جـ ١ ص ٤٩٣

وَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ " [١] . [٢] أ.ه

والحكمة من ذبح الموت بين أهل الجنة والنار سَوْقُ البشرى والطمأنينة للمؤمنين بخلودهم في الجنة، وحَسْمُ أطماع أهل النار وتَيْئِيسهم من الخروج منها .

وقد جاء في رواية الإمام مسلم – رحمه الله – عن ابن عمر – رضي الله عنهما – قول النبي – ﷺ – " فيزداد أهل الجنة فرحاً إلى فرحهم، ويزداد أهل النار حزناً إلى حزنهم " [٣]

قوله ﷻ " يَوْمَ يَبْعَثُهُمُ ٱللَّهُ جَمِيعًا فَيَحْلِفُونَ لَهُۥ كَمَا يَحْلِفُونَ لَكُمْ ۖ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ عَلَىٰ شَىْءٍ ۚ أَلَآ إِنَّهُمْ هُمُ ٱلْكَٰذِبُونَ "

بعد أن ذكرت الآية الكريمة ما توعد الله –ﷻ – به الكافرين من الخلود في النار ذكر الله – ﷻ – سفاهة من سفاهات الكافرين يوم القيامة من ظنهم أن ما فعلوه في الدنيا يمكن أن يفعلوه في الآخرة فقال الله – ﷻ – " يَوْمَ يَبْعَثُهُمُ ٱللَّهُ جَمِيعًا .. " وفي قوله الله –ﷻ – " جَمِيعًا " إشارة إلى أنه لن يفلت أحد منهم من عذاب الله – ﷻ – فجميعهم محشورون في صعيد واحد إلى مصير واحد، كذلك فيه الإشارة إلى أنه لن يغني أحد منهم عن أحد فالكل مُعَذَّبون السادة والأتباع كلهم سواء .

وقد ردَّ الله –ﷻ – على تحايلهم بالأيمان الكاذبة كما في قوله " وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذْ وُقِفُوا۟ عَلَى ٱلنَّارِ فَقَالُوا۟ يَٰلَيْتَنَا نُرَدُّ وَلَا نُكَذِّبَ بِـَٔايَٰتِ رَبِّنَا وَنَكُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ

---

١ – مريم ٣٩

٢ – رواه البخاري في كتاب: التفسير، باب: وأَنذِرْهُمْ يَوْمَ الْحَسْرَةِ ، انظر: فتح الباري جـ ٨ ص ٢٨٢ حديث رقم ٤٧٣٠، ورواه مسلم في كتاب: الجنة وصفة نعيمها وأهلها، باب: النار يدخلها الجبارون، والجنة يدخلها الضعفاء . انظر: صحيح مسلم بشرح النووي جـ ٩ ص ٢٠٠

٣ – جزء من رواية مسلم المتقدمة في كتاب: الجنة وصفة نعيمها وأهلها، باب: النار يدخلها الجبارون، والجنة يدخلها الضعفاء . انظر: صحيح مسلم بشرح النووي جـ ٩ ص ٢٠٠

۞ بَلۡ بَدَا لَهُم مَّا كَانُواْ يُخۡفُونَ مِن قَبۡلُۖ وَلَوۡ رُدُّواْ لَعَادُواْ لِمَا نُهُواْ عَنۡهُ وَإِنَّهُمۡ لَكَٰذِبُونَ " [١]

يقول الإمام الزمخشري – رحمه الله – " ليس العجب من حلفهم لكم، فإنكم بشر تخفى عليكم السرائر، وأن لهم نفعاً في ذلك دفعاً عن أرواحهم واستجرار فوائد دنيوية، وأنهم يفعلونه في دار لا يضطرون فيها إلى علم ما يوعدون، ولكن العجب من حلفهم لله عالم الغيب والشهادة مع عدم النفع، والاضطرار إلى علم ما أنذرتهم الرسل، والمراد: وصفهم بالتوغل في نفاقهم ومرونهم عليه، وأن ذلك بعد موتهم وبعثهم باق فيهم لا يضمحل، كما قال " وَلَوۡ رُدُّواْ لَعَادُواْ لِمَا نُهُواْ " [٢] وقد اختلف العلماء في كذبهم في الآخرة، والقرآن ناطق بثباته نطقاً مكشوفاً، كما ترى في هذه الآية وفي قوله تعالى " وَٱللَّهِ رَبِّنَا مَا كُنَّا مُشۡرِكِينَ ۞ ٱنظُرۡ كَيۡفَ كَذَبُواْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمۡۚ وَضَلَّ عَنۡهُم مَّا كَانُواْ يَفۡتَرُونَ " [٣] ونحو حسبانهم أنهم على شيء من النفع إذا حلفوا استنظارهم المؤمنين ليقتبسوا من نورهم، لحسبان أن الإيمان الظاهر مما ينفعهم ، وقيل عند ذلك: يختم على أفواههم " [٤] أ.ه

ومن سفاهة المشركين في هذا الأمر أنهم عندما كانوا في الدنيا كانوا يستحيون من مثل هذا الكذب.

ومن ذلك حديث أبي سفيان – ﷺ– لما كان كافراً مع هرقل عظيم الروم، فقد روى البخاري – في صحيحه – بسنده – عن عَبْدَ اللَّهِ بْنَ عَبَّاسٍ أَنَّ أَبَا سُفْيَانَ بْنَ حَرْبٍ أَخْبَرَهُ أَنَّ هِرَقْلَ أَرْسَلَ إِلَيْهِ فِي رَكْبٍ مِنْ قُرَيْشٍ وَكَانُوا تِجَارًا بِالشَّامِ فِي الْمُدَّةِ الَّتِي كَانَ رَسُولُ اللَّهِ – ﷺ– مَادَّ فِيهَا أَبَا سُفْيَانَ وَكُفَّارَ قُرَيْشٍ فَأَتَوْهُ وَهُمْ بِإِيلِيَاءَ فَدَعَاهُمْ فِي مَجْلِسِهِ وَحَوْلَهُ

---

١ – الأنعام ٢٧ – ٢٨

٢ – الأنعام ٢٨

٣ – الأنعام ٢٣ – ٢٤

٤ – الكشاف جـ ٤ ص ٤٨٣

عُظَمَاءُ الرُّومِ ثُمَّ دَعَاهُمْ وَدَعَا بِتَرْجُمَانِهِ فَقَالَ: أَيُّكُمْ أَقْرَبُ نَسَبًا بِهَذَا الرَّجُلِ الَّذِي يَزْعُمُ أَنَّهُ نَبِيٌّ ؟ فَقَالَ أَبُو سُفْيَانَ: فَقُلْتُ أَنَا أَقْرَبُهُمْ نَسَبًا، فَقَالَ: أَدْنُوهُ مِنِّي وَقَرِّبُوا أَصْحَابَهُ فَاجْعَلُوهُمْ عِنْدَ ظَهْرِهِ، ثُمَّ قَالَ لِتَرْجُمَانِهِ: قُلْ لَهُمْ إِنِّي سَائِلٌ هَذَا عَنْ هَذَا الرَّجُلِ فَإِنْ كَذَبَنِي فَكَذِّبُوهُ، فَوَاللَّهِ لَوْلَا الْحَيَاءُ مِنْ أَنْ يَأْثِرُوا عَلَيَّ كَذِبًا لَكَذَبْتُ عَنْهُ... " [١] أ.ه

فهذا الحديث يبين تحرجهم من الكذب على البشر حال كونهم كافرين، ففضح الله – ﷻ – من مات منهم على الكفر بمحاولتهم الكذب يوم القيامة.

ثم ختم الله –ﷻ – هذه الآيات الذآمّة لهم بقوله " ٱسْتَحْوَذَ عَلَيْهِمُ ٱلشَّيْطَٰنُ فَأَنسَىٰهُمْ ذِكْرَ ٱللَّهِ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ حِزْبُ ٱلشَّيْطَٰنِ ۚ أَلَآ إِنَّ حِزْبَ ٱلشَّيْطَٰنِ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ "

" ٱسْتَحْوَذَ عَلَيْهِمُ ٱلشَّيْطَٰنُ " أي غلب عليهم وحازهم [٢]

يقال: حاذَ يَحُوذَ حَوْذاً، والحَوْذُ والإحْواذُ السيرُ الشديد، وحاذ إبله يحوذها حَوْذاً ساقها سوقاً شديداً، وحاذ الإبل يحوذها إذا حازها وجمعها ليسوقها، والأَحْوَذِيُّ السريع في كل ما أَخَذَ فيه، والأَحْوَذِيّ الذي يَغْلِب، واستَحْوَذ غلب، وحاذه يَحُوذه حوذاً غلبه واستَحْوذ عليه الشيطان واستحاذ أي غلب. [٣]

والشيطان مأخوذ من شطن إذا بَعُدَ أو شاط إذا احترق على اختلاف العلماء في النون هل هي أصلية أم زائدة:

فقيل النون فيه أصيلة، قال ابن منظور: الشيطان: فيعال من: شطن: إذا بَعُدَ، فيمن جعل النون أصلاً، وقولهم: الشياطين دليل عن ذلك، وهو من: شطن أي: تباعد، ومنه: بئر شطون، وشطنت الدار، وغربة شطون، الشاطِنُ البعيد عن الحق، وكل عات متمرد من الجن والإنس والدواب شيطان.

---

١ – جزء من حديث طويل رواه البخاري في صحيحه كتاب بدء الوحي جـ ١ ص ٤٢

٢ – انظر: مجاز القرآن لأبي عبيدة معمر بن المثنى جـ ٢ ص ٢٥٥ ط مكتبة الخانجي – القاهرة، معاني القرآن للفراء جـ ٣ ص ١٤٢ ط دار السرور

٣ – انظر: لسان العرب مادة " حوذ " جـ ٣ ص ٤٨٦، أساس البلاغة للزمخشري مادة " حوذ " ص ١٤٦، العمدة في غريب القرآن وتفسيره لأبي بكر محمد بن مكي بن طالب القيسي ص ٣٠٢

وقيل: بل النون فيه زائدة، من شاط يشيط: احترق غضباً، فالشيطان مخلوق من النار كما دل عليه قوله تعالى " وَخَلَقَ ٱلْجَآنَّ مِن مَّارِجٍ مِّن نَّارٍ " [١]، ولكونه من ذلك اختص بفرط القوة الغضبية والحمية الذميمة، وامتنع من السجود لآدم، والشيطان اسم لكل عارم من الجن والإنس والحيوانات، يقال: تشَيْطَنَ الرجلُ فَعَل فِعْل الشياطين، قال تعالى" شَيَـٰطِينَ ٱلْإِنسِ وَٱلْجِنِّ " [٢]، وقال " وَإِنَّ ٱلشَّيَـٰطِينَ لَيُوحُونَ إِلَىٰٓ أَوْلِيَآئِهِمْ لِيُجَـٰدِلُوكُمْ " [٣]، " وَإِذَا خَلَوْاْ إِلَىٰ شَيَـٰطِينِهِمْ " [٤]، أي: أصحابهم من الجن والإنس، وقوله " طَلْعُهَا كَأَنَّهُۥ رُءُوسُ ٱلشَّيَـٰطِينِ " [٥] قيل: هي حية خفيفة الجسم، وقيل: أراد به عارم الجن، فتشبه به لقبح تصورها، قال الزجاج وجهه أن الشيء إذا استُقْبح شُبِّه بالشياطين فيقال كأنه وجه شيطان وكأنه رأس شيطان والشيطان لا يُرى ولكنه يُستَشْعَر أنه أقبَح ما يكون من الأشياء ولو رُؤِيَ لَرُؤِيَ في أقبح صورة ومثله قول امرئ القيس:

أَيَقْتُلُني والمَشْرَفِيُّ مُضاجِعي * ومَسْنونةٌ زُرْقٌ كأنيابِ أَغوالِ

ولم تُرَ الغُولُ ولا أنيابها ولكنهم بالغوا في تمثيل ما يستقبح من المذكر بالشيطان وفيما يُستَقْبَح من المؤنث بالتشبيه له بالغول، وسمي كل خلق ذميم للإنسان شيطاناً. [٦] أ.ه

---

١ – الرحمن١٥

٢ – الأنعام١١٢

٣ – الأنعام١٢١

٤ – البقرة١٤

٥ – الصافات٦٥

٦ – انظر: معجم مفردات ألفاظ القرآن للراغب مادة " شطن" ص ٢٦٧، لسان العرب مادة "شطن" جـ ١٣ ص ٢٣٧، ديوان امريء القيس من قصيدة بعنوان: ألا عِمْ صباحاً ص ٦٢ ط دار الجيل – بيروت، معاني القرآن للزجاج جـ ٤ ص ٣٠٦.

قوله " فَأَنسَىٰهُمْ ذِكْرَ ٱللَّهِ " من العلماء من حمل الذكر هنا على ظاهره ومنهم من حمله على التزام الطاعة واجتناب المعصية .

يقول الإمام القرطبي – رحمه الله – " أوامره في العمل بطاعته، وقيل: زواجره في النهي عن معصيته.

والنسيان قد يكون بمعنى الغفلة، ويكون بمعنى الترك، والوجهان محتملان هنا ". [١]

وقال الزمخشري – رحمه الله – " أنساهم أن يذكروا الله أصلاً لا بقلوبهم ولا بألسنتهم ". [٢]

والكل مما تحتمله الآية الكريمة.

قوله " أُوْلَٰٓئِكَ حِزْبُ ٱلشَّيْطَٰنِ ۚ أَلَآ إِنَّ حِزْبَ ٱلشَّيْطَٰنِ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ "

الحِزْبُ: جَماعةُ الناسِ والجمع أَحْزابٌ، وحِزْبُ الرجل أَصْحابُه وجُنْدُه الذين على رأْيه، والمُنافِقُونَ والكافِرُونَ حِزْبُ الشَّيطانِ وكل قوم تَشاكَلَتْ قُلُوبهُم وأَعْمالُهم فهم أَحْزابٌ وإِن لم يَلْقَ بعضُهم بَعْضاً.

يقال: هؤلاء حزبي، وهم أحزابي، ودخلت عليه وعنده الأحزاب، وحزب قومه فتحزبوا أي صاروا طوائف، وفلان يحازب فلاناً: ينصره ويعاضده.[٣] أ.ه

فالمنافقون حزب الشيطان لأنهم ساروا على شاكلة سيره من الصدِّ عن الدين والترصد بالمؤمنين وإشاعة البغضاء والشحناء بينهم.

ثم ختم الله -ﷻ- الآية بقوله " أَلَآ إِنَّ حِزْبَ ٱلشَّيْطَٰنِ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ "

يقول الإمام الألوسي – رحمه الله –: أي الموصوفون بالخسران الذي لا غاية وراءه حيث فوّتوا على أنفسهم النعيم المقيم وأخذوا بدله العذاب الأليم، وفي تصدير

---

١ – تفسير القرطبي جـ ١٧ ص ٢٩١

٢ – الكشاف للزمخشري جـ ٤ ص ٤٨٣

٣ – مادة "حزب" في: أساس البلاغة ص ١٢٤، لسان العرب جـ ١ ص ٣٠٨

الجملة بحرفي التنبيه والتحقيق وإظهار المتضايفين معاً في موقع الإضمار بأحد الوجهين، وتوسيط ضمير الفصل من فنون التأكيد ما لا يخفى. [١] أ.ه

والتأكيد هنا بهذه الأدوات ليس لأن الموضوع فيه شك وإنما لمزيد استحضار اليقين بوجوب صدق هذا الوصف عليهم، حيث إن حال هؤلاء المنافقين أنهم لا يرعوون عن نفاقهم مع ما ثبت لديهم من اطلاع الله – ﷻ– على حالهم وفضحه لأسرارهم، والله أعلم.

ثم ذكر الله – ﷻ– بعد هذه الآيات الكريمة المتحدثة عن المنافقين وتوليهم اليهود قوله ﷻ " إِنَّ ٱلَّذِينَ يُحَآدُّونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ أُوْلَٰٓئِكَ فِى ٱلْأَذَلِّينَ "

ووجه المناسبة بين هذه الآية وما سبقها أنَّ الآيات السابقة تحدثت عن نوع من محآدة المنافقين لله – ﷻ– ورسوله – ﷺ– فأعقب ذلك ببيان حال كل من سار على شاكلتهم في الدنيا والآخرة وهو الذلة والهوان جزاءً لهم على عداوتهم لله –ﷻ– ولرسوله ﷺ.

فقول الله –ﷻ– " فَلَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ " خاص بهؤلاء المنافقين المذكورين في الآيات، أما هذه الآية فهي عامة فيهم وفيمن شابههم في أفعالهم.

وقد سبق الكلام عن معنى المحادة عند التعرض لتفسير قول الله –ﷻ– " إِنَّ ٱلَّذِينَ يُحَآدُّونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ كُبِتُواْ كَمَا كُبِتَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ..... "

وقوله " أُوْلَٰٓئِكَ فِى ٱلْأَذَلِّينَ " أي في المغلوبين. [٢]

والذُّلُّ نقيض العِزِّ، ذلَّ يذِلُّ ذُلاًّ وذِلَّة وذَلالة ومَذَلَّة فهو ذليل بَيِّن الذُّلِّ والمَذَلَّة من قوم أَذِلاّء وأَذِلَّة وذِلال، وأَذَلَّه وجده ذَليلاً واسْتَذَلُّوه رأَوه ذَليلاً، والذُّلُّ الخِسَّة، وأَذَلَّه واسْتَذَلَّه كله بمعنى واحد، وتَذَلَّل له أي خَضَعَ وفي أسماء الله تعالى المُذِلُّ هو الذي يُلْحِق

---

١ – روح المعاني مجلد ١٥ جـ ٢٨ ص ٤٩

٢ – معاني القرآن للزجاج جـ ٥ ص ١٤١

الذُّلَّ بمن يشاء من عباده وينفي عنه أنواع العز جميعها .[١]

وربما يقول قائل هنا: لِمَ قال الله -ﷻ- " أُوْلَٰٓئِكَ فِي ٱلْأَذَلِّينَ " ولم يقل مثلاً أولئك هم الأذلون ؟

والجواب: أنه لو جاءت الآية كذلك ربما ظنَّ ظآنٌ حصر صفة الذلة فيهم فقط، لكن مجيء الآية بـ " فِي " إشارة إلى كونهم من الأذلين وليسوا هم كل الأذلين، فدلَّ ذلك على وجود أصناف أخرى معهم في هذه الصفة كعُبَّاد الأصنام وغيرهم، والله أعلم.

قوله " كَتَبَ ٱللَّهُ لَأَغْلِبَنَّ أَنَا۠ وَرُسُلِيٓ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٌ "

وعن وجه مناسبة هذه الآية بما سبقها يقول الرازي – رحمه الله – ذلُّ أحد الخصمين على حسب عز الخصم الثاني، فلما كانت عزة الله غير متناهية، كانت ذِلة من ينازعه غير متناهية أيضاً، ولما شرح ذلهم، بيَّن عز المؤمنين فقال " كَتَبَ ٱللَّهُ لَأَغْلِبَنَّ أَنَا۠ وَرُسُلِيٓ " أ.ه [٢]

فهذه الآية جاءت لمقابلة حال المؤمنين بحال المنافقين ومن شاكلهم، فكما اتصف المنافقون بالذلة والمهانة اتصف المؤمنون بالعزة والكرامة.

قال مقاتل: إن المسلمين قالوا: إنا لنرجو أن يظهرنا الله على فارس والروم، فقال عبد الله بن أبيّ: أتظنون أن فارس والروم كبعض القرى التي غلبتموهم، كلا والله إنهم أكثر جمعاً وعدة فأنزل الله هذه الآية.[٣]

قوله " كَتَبَ ٱللَّهُ " استئنافٌ واردٌ لتعليلِ كونِهِمْ في الأذلينَ أيْ قضى وثبت في اللوحِ وحيثُ جَرَى ذلكَ مَجرى القسمِ أجيبَ بما يجابُ به فقيلَ " لَأَغْلِبَنَّ أَنَا۠ وَرُسُلِيٓ " [٤].

---

١ – لسان العرب مادة " ذلل" جـ ١١ ص ٢٥٦

٢ – مفاتيح الغيب جـ ١٥ ص ٤٦٠

٣ – مفاتيح الغيب جـ ١٥ ص ٤٦٠

٤ – تفسير أبي السعود جـ ٥ ص ٢٩٦

و" كَتَبَ ٱللَّهُ " أي قضى الله – ﷻ – بهذا الأمر.

يقول الراغب: " وَأُوْلُواْ ٱلْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَىٰ بِبَعْضٍ فِى كِتَٰبِ ٱللَّهِ " [١] أي: في حكمه، وقوله " وَكَتَبْنَا عَلَيْهِمْ فِيهَآ أَنَّ ٱلنَّفْسَ بِٱلنَّفْسِ " [٢] أي: أوجبنا وفرضنا، وكذلك قوله " كُتِبَ عَلَيْكُمْ إِذَا حَضَرَ أَحَدَكُمُ ٱلْمَوْتُ " [٣]، وقوله " كُتِبَ عَلَيْكُمُ ٱلصِّيَامُ " [٤]، " وَلَوْلَآ أَن كَتَبَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمُ ٱلْجَلَآءَ " [٥] أي: لولا أن أوجب الله عليهم الإخلاء لديارهم، ويعبر بالكتابة عن القضاء الممضى، وما يصير في حكم الممضى. [٦] أ.ه

" إِنَّ ٱللَّهَ قَوِىٌّ "على نصرة أنبيائه " عَزِيزٌ " غالب لا يدفعه أحد عن مراده، لأن كل ما سواه ممكن الوجود لذاته، والواجب لذاته يكون غالباً للممكن لذاته. [٧]

---

١ – الأنفال٧٥

٢ – المائدة٤٥

٣ – البقرة١٨٠

٤ – البقرة١٨٣

٥ – الحشر٣

٦ – معجم مفردات ألفاظ القرآن للراغب مادة " كتب" ص ٤٤٠

٧ – مفاتيح الغيب جـ ١٥ ص ٤٦٠

المطلب الخامس

قطع المودة بين المؤمنين والكافرين.

بعد أن ذكر الله -ﷻ- أحوال المنافقين وبيَّن أنهم حزب الشيطان وأنهم الخاسرون وحكمه عليهم بالذلة والصَّغار بيَّن الله -ﷻ- حال المؤمنين الصادقين في إيمانهم فقال الله -ﷻ- ﴿ لَّا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ يُوَآدُّونَ مَنْ حَآدَّ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَلَوْ كَانُوٓاْ ءَابَآءَهُمْ أَوْ أَبْنَآءَهُمْ أَوْ إِخْوَٰنَهُمْ أَوْ عَشِيرَتَهُمْ ۚ أُوْلَٰٓئِكَ كَتَبَ فِى قُلُوبِهِمُ ٱلْإِيمَٰنَ وَأَيَّدَهُم بِرُوحٍ مِّنْهُ ۖ وَيُدْخِلُهُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا ۚ رَضِىَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُواْ عَنْهُ ۚ أُوْلَٰٓئِكَ حِزْبُ ٱللَّهِ ۚ أَلَآ إِنَّ حِزْبَ ٱللَّهِ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴾ [١]

سبب نزول الآية الكريمة:

جاء في سبب نزول الآية الكريمة أنها نزلت في أبى عبيدة بن الجراح قتل أباه عبد الله بن الجراح يوم أحد. [٢] أ.ه

---

١ - المجادلة ٢٢

٢ - رواه الحاكم في المستدرك عن عبد الله بن شوذب، في كتاب: معرفة الصحابة، باب ذكر مناقب أبي عبيدة بن الجراح ﷺ، وفي الرواية تصريح بأن الآية نزلت فيه. انظر المستدرك جـ ٣ ص ٣٩٦، ورواه الطبراني في المعجم الكبير بإسناده عن عبد الله بن شوذب. انظر المعجم الكبير للطبراني باب: قتل أبي عبيدة - ﷺ- أباه يوم بدر جـ ١ ص ١٥٤ رقم ٣٦٠، وقال ابن حجر - رحمه الله - " أخرجه الطبراني بسندٍ جيدٍ عن عبد الله بن شوذب ". انظر: الإصابة في تمييز الصحابة لابن حجر جـ ٥ ص ٥٠٩

وروى الواحدي – رحمه الله – في سبب نزول الآية الكريمة عدة روايات مختلفة: فذكر عن ابن جريج – رحمه الله – أن أبا قحافة سب النبيَّ – ﷺ – فصكه أبو بكر صكةً شديدة سقط منها، ثم ذكر ذلك للنبي – ﷺ – قال: أوفعلته ؟ قال: نعم، قال: فلا تعد إليه، فقال أبو بكر: والله لو كان السيف قريبا مني لقتلته، فأنزل الله تبارك وتعالى هذه الآية.

كما ذكر عن ابن مسعود أنها نزلت في أبي بكر وابنه عبد الرحمن شهد بدراً مع المشركين، ودعا إلى البراز.[١]

وفي مصعب بن عمير قتل أخاه عبيد بن عمير يوم أحد، وفي عمر قتل خاله العاص بن هشام بن المغيرة يوم بدر، وفي علي وحمزة قتلوا عتبة وشيبة ابني ربيعة والوليد بن عتبة يوم بدر [٢]، وذلك قوله " وَلَوْ كَانُوٓاْ ءَابَآءَهُمْ أَوْ أَبْنَآءَهُمْ أَوْ إِخْوَٰنَهُمْ أَوْ عَشِيرَتَهُمْ "[٣] أ.ه

وقيل إنها نزلت في عبد الله بن عبد الله بن أبيَّ عندما استأذن النبي – ﷺ – في قتل أبيه [٤] أ.ه

وذكر الإمام الرازي – رحمه الله – أن الآية نزلت في حاطب بن أبي بلتعة وإخباره أهل مكة بمسير النبي – ﷺ – لما أراد فتح مكة [٥] أ.ه

فقد روى الإمام البخاري – رحمه الله – في صحيحه – بسنده – عن علي بن

---

١ – رواه الحاكم في المستدرك عن محمد بن عمر الواقدي، في كتاب: معرفة الصحابة، باب ذكر مناقب عبد الرحمن بن أبي بكر. انظر المستدرك جـ ٣ ص ٥٣٩

٢ – حديث قتل حمزة لعتبة وعليٍّ لشيبة ابني ربيعة رواه الحاكم في المستدرك وقال " صحيح على شرط الشيخين ولم يخرجاه " وليس فيه التصريح بكون الآية نزلت في ذلك. انظر: مستدرك الحاكم في كتاب: معرفة الصحابة، باب ذكر إسلام حمزة بن عبد المطلب. جـ ٣ ص ٢١٤ حديث ٤٨٨٢

٣ – أسباب النزول للواحدي ص ٣٥٢

٤ – تفسير القرطبي جـ ١٧ ص ٢٩٢

٥ – مفاتيح الغيب جـ ١٥ ص ٤٦٣، والحديث بتمامه رواه البخاري في كتاب: المغازي، باب: غزوة الفتح . انظر: فتح الباري جـ ٧ ص ٥٩٢

أبي طالب- ﷺ- قال " بعثني رسول الله ﷺ أنا والزبير [١] والمقداد [٢] فقال انطلقوا حتى تأتوا روضة خاخ، فإن بها ظعينة [٣] معها كتاب فخذوه منها ٠

قال: فانطلقنا تَعَادَى بنا خيلنا حتى أتينا الروضة، فإذا نحن بالظعينة، قلنا لها: أخرجي الكتاب، قالت: ما معي كتاب ٠

فقلنا: لتُخْرِجِنَّ الكتاب أو لنلقينَّ الثياب، قال: فأخرجته من عقاصها [٤] فأتينا به رسول الله - ﷺ- فإذا فيه: مِنْ حاطب بن أبي بلتعة إلى - ناس بمكة من المشركين - يخبرهم ببعض أمر رسول الله ﷺ.

فقال رسول الله ﷺ: يا حاطب ما هذا ؟

قال: يا رسول الله لا تعجلْ عليَّ، إني كنت امرأ مُلصَقاً في قريش - يقول كنت حليفا - ولم أكن من أنفُسها وكان مَن معك مِن المهاجرين مَن لهم قرابات يحمون أهليهم وأموالهم، فأحببت إذ فاتني ذلك من النسب فيهم أن أتخذ عندهم يداً يحمون قرابتي، ولم أفعله ارتداداً عن ديني ولا رضاً بالكفر بعد الإسلام ٠

---

١ - هو الزبير بن العوام بن خويلد القرشي الأسدي، يُكنَّى أبا عبد الله، أمُّه صفية بنت عبد المطلب عمة رسول الله - ﷺ - أسلم وهو ابن خمس عشرة سنة، وقيل غير ذلك، لم يتخلف عن غزوة غزاها رسول الله - ﷺ - وكان أولَ مَنْ سلَّ سيفاً في سبيل الله ﷻ، وجعله عمر بن الخطاب في الستة أصحاب الشوري، وكان تاجراً، وشهد الجمل فقاتل فيه ساعة، ثم كلَّمه علي - ﷺ - فترك القتال فاتبعه ابن جُرْموز فقتله، وحزن عليه علي بن أبي طالب ٠ الاستيعاب لابن عبد البر جـ ٢ ص ٨٩

٢ - هو المقداد بن عمرو بن ثعلبة، تبنَّاه الأسود بن عبد يغوث وحالفه في الجاهلية فنُسِبَ إليه، كان قديم الإسلام، لم يستطع الهجرة وكان النبي - ﷺ - قد أرسل سريَّة فهرب المقداد من المشركين ولحق بالمسلمين، وشهد بدراً والمشاهد كلها، وكان من الفضلاء النجباء الكبار الخيار من أصحاب رسول الله - ﷺ- وشهد فتح مصر ومات غي أرضه بالجرُف وهو ابن سبعين سنة، وحُمِلَ إلى المدينة ودُفِنَ بها وصلى عليه عثمان بن عفان سنة ثلاث وثلاثين ٠ انظر: الاستيعاب لابن عبد البر جـ ٤ ص ٤٢

٣ - الظعينة: هي المرأة تكون في الهودج، قيل سُميت بذلك لأنها تظْعَنُ مع زوجها وتقيم بإقامته ٠ انظر: لسان العرب مادة (ظعن) جـ ١٣ ص ٢٧١

٤ - العَقْص: أن تأخذ المرأة كل خُصلة من شعرها فتلويها ثم تعقدها حتى يبقى فيها التواء ثم ترسلها ٠ انظر: لسان العرب مادة (عقص) جـ ٧ ص ٥٦

فقال رسول الله ﷺ: أمَا إنه قد صَدَقكم .

فقال عمر: يا رسول الله دعني أضرب عنق هذا المنافق .

فقال: إنه قد شهد بدراً، وما يدريك لعل الله اطلع على من شهد بدراً قال اعملوا ما شئتم فقد غفرت لكم فأنزل الله السورة { يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُواْ عَدُوِّى وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَآءَ تُلْقُونَ إِلَيْهِم بِٱلْمَوَدَّةِ وَقَدْ كَفَرُواْ بِمَا جَآءَكُم مِّنَ ٱلْحَقِّ) إلى قوله (فَقَدْ ضَلَّ سَوَآءَ ٱلسَّبِيلِ) [١]. [٢]

والآية تحتمل كل ما روي في سبب نزولها وغيره، فالعبرة بعموم اللفظ، وموضوع الآية يشمل كل هذه المواقف المذكورة، وما سيأتي بعدها إلى يوم القيامة والله أعلم.

قوله " لَّا تَجِدُ قَوْمًا "

يقول الزمخشري – رحمه الله –: " لَّا تَجِدُ قَوْمًا " من باب التخييل، خيل أن من الممتنع المحال: أن تجد قوماً مؤمنين يوالون المشركين، والغرض به أنه لا ينبغي أن يكون ذلك، وحقه أن يمتنع ولا يوجد بحال، مبالغة في النهي عنه والزجر عن ملابسته، والتوصية بالتصلب في مجانبة أعداء الله ومباعدتهم والاحتراس من مخالطتهم ومعاشرتهم، وزاد ذلك تأكيداً وتشديداً بقوله " وَلَوْ كَانُوٓاْ ءَابَآءَهُمْ " وبقوله " أُوْلَٰٓئِكَ كَتَبَ فِى قُلُوبِهِمُ ٱلْإِيمَٰنَ " وبمقابلة قوله " أُوْلَٰٓئِكَ حِزْبُ ٱلشَّيْطَٰنِ " [٣] بقوله " أُوْلَٰٓئِكَ حِزْبُ ٱللَّهِ " فلا تجد شيئاً أدخل في الإخلاص من موالاة أولياء الله ومعاداة أعدائه، بل هو الإخلاص بعينه.[٤] أ.ه

---

١ – سورة الممتحنة آية ١

٢ – رواه البخاري في كتاب: المغازي، باب: غزوة الفتح وما بعث به حاطب بن أبي بلتعة إلى أهل مكة يخبرهم بغزو النبي ﷺ . انظر: فتح الباري جـ ٧ ص ٥٩٢

٣ – المجادلة ١٩

٤ – الكشاف جـ ٤ ص ٤٨٤

وهذه الآية الكريمة قد اشتملت على أوصاف تبين هؤلاء الذين وعدهم الله -ﷻ- بما وعدهم به في آخرها :

الصفة الأولى: قوله " قَوْمًا " ويترتب على هذا الوصف أن هذا الفعل قد يقع من فرد أو اثنين، لكنه لا يقع من جميع المؤمنين، وذلك كما قَالَ رَسُولُ اللَّهِ - ﷺ- فيما رواه أَنَسَ بْنَ مَالِكٍ - ﷺ- يَقُولُ سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ - ﷺ- يَقُولُ " إِنَّ أُمَّتِي لَا تَجْتَمِعُ عَلَى ضَلَالَةٍ ".[1]

فالمعنى نفي هذا الأمر عن مجموع المؤمنين بحسب هذا الوصف في الآية الكريمة.

وقد يُعترض على هذا بأن الفرد المؤمن أيضاً لا يقع منه هذا الفعل فكيف نقول بامتناعه عن المجموع دون الأفراد ؟

أقول: هذا وصف أعقبه بقيد آخر بيَّن امتناع ذلك عن الجماعات والأفراد، وهو قوله " يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْآخِرِ "

الصفة الثانية: قوله " يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْآخِرِ "

ففي وصفهم بقول الله - ﷻ- " يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْآخِرِ " إشارة إلى أن موآدتهم تنافي الإيمان بالله واليوم الآخر، ذلك أن ما يفعله من حآدوا الله - ﷻ-

---

١ - رواه ابن ماجة واللفظ له في كتاب: الفتن، باب: السواد الأعظم جـ ٢ ص ٣٦ حديث ٣٩٥٠، ورواه أبو داود في سننه بلفظ " إِنَّ اللَّهَ أَجَارَكُمْ مِنْ ثَلَاثِ خِلَالٍ: أَنْ لَا يَدْعُوَ عَلَيْكُمْ نَبِيُّكُمْ فَتَهْلَكُوا جَمِيعًا، وَأَنْ لَا يَظْهَرَ أَهْلُ الْبَاطِلِ عَلَى أَهْلِ الْحَقِّ، وَأَنْ لَا تَجْتَمِعُوا عَلَى ضَلَالَةٍ " انظر سنن أبي داود، كتاب الفتن والملاحم: باب: ذكر الفتن ودلائلها جـ ٤ ص ٧٦ حديث رقم٤٢٥٣، ورواه الترمذي في كتاب: الفتن، باب: ما جاء في لزوم الجماعة عَنْ ابْنِ عُمَرَ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ - ﷺ- قَالَ إِنَّ اللَّهَ لَا يَجْمَعُ أُمَّتِي أَوْ قَالَ أُمَّةَ مُحَمَّدٍ - ﷺ- عَلَى ضَلَالَةٍ وَيَدُ اللَّهِ مَعَ الْجَمَاعَةِ وَمَنْ شَذَّ شَذَّ إِلَى النَّارِ " انظر: تحفة الأحوذي جـ ٦ ص ١٦ حديث ٢١٦٧، ورواه الحاكم موقوفاً على أبي مسعود بلفظ " فإن الله لم يجمع أمة محمد - ﷺ- على ضلالة أبدا " وقال « هذا حديث صحيح على شرط الشيخين ولم يخرجاه » وقال الذهبي في التلخيص: على شرط البخاري ومسلم. انظر: مستدرك الحاكم مع التلخيص جـ ٤ ص ٥٩٨ كتاب: الفتن والملاحم حديث رقم ٨٦٦٤

ورسوله – ﷺ– قائم على إنكار وجود الله –ﷻ – وإنكار اليوم الآخر، إذ لو كانوا مؤمنين بهما ما فعلوا ما فعلوه أصلاً، فالحاصل أنك لا تجد أبداً جماعة المؤمنين أو أفرادهم الذين يؤمنون بالله – ﷺ– واليوم الآخر يقعون في ذلك الفعل، والله أعلم.

قوله " يُوَآدُّونَ " أي يحبون.

يقال: وَدَّ الشيءَ وُدًّا وَوِدًّا وَوَدّاً وَوَدادةً وَوِداداً وَوَداداً ومَوَدَّةً ومَوْدِدةً أَحَبَّه، والودود في أسماءِ الله تعالى فَعُولٌ بمعنى مَفْعُول من الودّ المحبة يقال وددت الرجل إذا أَحببته فالله تعالى مَوْدُود أي مَحْبوب في قلوب أَوليائه أَو هو فَعُول بمعنى فاعل أي يُحِبّ عباده الصالحين بمعنى يَرْضى عنهم. [1]

وهذا يبين المنهي عنه، وهو المحبة، أما المخالطة والمعاملة فقد أباحها الله –ﷻ – ما دامت لا تفضي إلى مخالفة النهي هنا، وهذا كما جاء في قول الله – ﷺ–

" لَّا يَنْهَىٰكُمُ ٱللَّهُ عَنِ ٱلَّذِينَ لَمْ يُقَٰتِلُوكُمْ فِى ٱلدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُم مِّن دِيَٰرِكُمْ أَن تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوٓاْ إِلَيْهِمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُقْسِطِينَ ۞ إِنَّمَا يَنْهَىٰكُمُ ٱللَّهُ عَنِ ٱلَّذِينَ قَٰتَلُوكُمْ فِى ٱلدِّينِ وَأَخْرَجُوكُم مِّن دِيَٰرِكُمْ وَظَٰهَرُواْ عَلَىٰٓ إِخْرَاجِكُمْ أَن تَوَلَّوْهُمْ ۚ وَمَن يَتَوَلَّهُمْ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ " [2]

فالإباحة هنا للبر والقسط، والنهي عن التولي الذي يشتمل على معنى المودة الوارد في الآية محل البحث.

قوله " وَلَوْ كَانُوٓاْ ءَابَآءَهُمْ أَوْ أَبْنَآءَهُمْ أَوْ إِخْوَٰنَهُمْ أَوْ عَشِيرَتَهُمْ "

نجد هنا أن الله – ﷺ– يذكر أنَّ من قوة إيمان هؤلاء الموصوفين أنَّ هذه المودة لا تقع منهم مع من حآد الله –ﷻ – ورسوله – ﷺ– حتى ولو كانوا أقرب الناس إليهم،

---

١ – لسان العرب مادة " ودد " جـ ٣ ص ٤٥٣

٢ – الممتحنة ٨ – ٩

واكتفى بذكر هؤلاء عن ذِكر غيرهم لأنهم أقرب الناس إلى نفس كل إنسان، فما دام سيعاديهم من أجل الله – ﷻ– فعداوته لغيرهم لهذا السبب أولى.

وبدأ بالآباء لتقدمهم في الوجود والتعلق، فالابن ينشأ أولاً على محبة الآباء ومودتهم، ثمَّ أتبعهم بالأبناء لأنهم الأقرب محبة عندهم بعد الآباء، ثم الإخوة فهم في الغالب أدنى مرتبة من الأبناء في المودة والقُرْب، ثم العشيرة.

لذا نجد القرآن يحذر من طاعة الوالدين في معصية الله –ﷻ– " وَوَصَّيْنَا ٱلْإِنسَـٰنَ بِوَٰلِدَيْهِ حَمَلَتْهُ أُمُّهُۥ وَهْنًا عَلَىٰ وَهْنٍ وَفِصَـٰلُهُۥ فِى عَامَيْنِ أَنِ ٱشْكُرْ لِى وَلِوَٰلِدَيْكَ إِلَىَّ ٱلْمَصِيرُ ۞ وَإِن جَـٰهَدَاكَ عَلَىٰٓ أَن تُشْرِكَ بِى مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَا ۖ وَصَاحِبْهُمَا فِى ٱلدُّنْيَا مَعْرُوفًا ۖ وَٱتَّبِعْ سَبِيلَ مَنْ أَنَابَ إِلَىَّ ۚ ثُمَّ إِلَىَّ مَرْجِعُكُمْ فَأُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ " [١]

روى مسلم في صحيحه – بسنده – عن مُصْعَبُ بْنُ سَعْدٍ عَنْ أَبِيهِ أَنَّهُ نَزَلَتْ فِيهِ آيَاتٌ مِنْ الْقُرْآنِ قَالَ: حَلَفَتْ أُمُّ سَعْدٍ أَنْ لَا تُكَلِّمَهُ أَبَدًا حَتَّى يَكْفُرَ بِدِينِهِ وَلَا تَأْكُلَ وَلَا تَشْرَبَ قَالَتْ زَعَمْتَ أَنَّ اللَّهَ وَصَّاكَ بِوَالِدَيْكَ وَأَنَا أُمُّكَ وَأَنَا آمُرُكَ بِهَذَا قَالَ مَكَثَتْ ثَلَاثًا حَتَّى غُشِيَ عَلَيْهَا مِنْ الْجَهْدِ فَقَامَ ابْنٌ لَهَا يُقَالُ لَهُ عُمَارَةُ فَسَقَاهَا فَجَعَلَتْ تَدْعُو عَلَى سَعْدٍ فَأَنْزَلَ اللَّهُ – ﷻ– فِي الْقُرْآنِ هَذِهِ الْآيَةَ "وَوَصَّيْنَا ٱلْإِنسَـٰنَ بِوَٰلِدَيْهِ حُسْنًا " [٢] " وَإِن جَـٰهَدَاكَ عَلَىٰٓ أَن تُشْرِكَ بِى " وفيها { وَصَاحِبْهُمَا فِى ٱلدُّنْيَا مَعْرُوفًا } [٣] أ.ه

---

١ – لقمان ١٤، ١٥

٢ – العنكبوت ٩

٣ – جزء من حديث رواه مسلم في كتاب فضائل الصحابة باب في فضل سعد بن أبي وقاص رضى الله تعالى عنه . انظر: صحيح مسلم بشرح النووي جـ ٨ ص ١٩٨ حديث رقم ١٧٨٤

قوله " أُوْلَـٰٓئِكَ " الذين وصفهم الله -ﷻ- بما سبق لهم عند الله -ﷻ- جملة من الهبات والعطايا:

منها: " كَتَبَ فِي قُلُوبِهِمُ ٱلْإِيمَـٰنَ "

يعبر بالكتابة عن القضاء الممضى، وما يصير في حكم الممضى، وعلى هذا حمل قوله " بَلَىٰ وَرُسُلُنَا لَدَيْهِمْ يَكْتُبُونَ " [١] قيل: ذلك مثل قوله " يَمْحُواْ ٱللَّهُ مَا يَشَآءُ وَيُثْبِتُ " [٢]، وقوله " أُوْلَـٰٓئِكَ كَتَبَ فِي قُلُوبِهِمُ ٱلْإِيمَـٰنَ وَأَيَّدَهُم بِرُوحٍ مِّنْهُ " [٣] فإشارة منه إلى أنهم بخلاف من وصفهم بقوله " وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُۥ عَن ذِكْرِنَا " [٤] لأن معنى " أَغْفَلْنَا " من قولهم: أغفلت الكتابَ: إذا جعلته خاليا من الكتابة ومن الإعجام. [٥]

ومن العلماء من جعل الكتابة هنا بمعنى وضع علامة في قلوبهم يُعرفون بها، ومنهم من حملها على الخلق أي خلق الإيمان في قلوبهم.

قال أبو علي الفارسي - رحمه الله - " معنى "كَتَبَ فِي قُلُوبِهِمُ ٱلْإِيمَـٰنَ " كتب في قلوبهم علامته، فحذف المضاف، ومعنى كتابة الإيمان في قلوبهم: أنها سمة لمن يشاهدهم من الملائكة أنهم مؤمنون، كما أن قوله في الكفّار " وَطَبَعَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ " [٦] علامة يعلم من شاهدها من الملائكة أنه المطبوع على قلبه، وعلى هذا قوله " وَلَا تُطِعْ

---

١ - الزخرف ٨٠

٢ - الرعد ٣٩

٣ - المجادلة ٢٢

٤ - الكهف ٢٨

٥ - معجم مفردات ألفاظ القرآن للراغب مادة " كتب" ص ٤٤٠

٦ - التوبة ٩٣

مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُ عَن ذِكْرِنَا " [١] أي: جعلها غفلاً من العلامة التي تكون في قلوب الذاكرين. [٢] أ.ه

وقد ذكر الرازي – رحمه الله – أقوال العلماء في المراد بالكتابة هنا فقال: أحدها: جعل في قلوبهم علامة تعرف بها الملائكة ما هم عليه من الإخلاص.

وثانيها: المراد شرح صدورهم للإيمان بالألطاف والتوفيق، وثالثها: قيل في" كَتَبَ" قضى أن قلوبهم بهذا الوصف. [٣] أ.ه

وبعد أن سلَّم بصحة هذه الوجوه قال: ونفرع عليها صحةَ قولنا، فإن الذي قضى الله به أخبر عنه وكتبه في اللوح المحفوظ، لو لم يقع لانقلب خبر الله الصدق كذباً وهذا محال، والمؤدي إلى المحال محال، وقال جمهور أصحابنا " كَتَبَ" معناه أثبت وخلق، وذلك لأن الإيمان لا يمكن كتبه، فلا بد من حمله على الإيجاد والتكوين. [٤] انتهى بتصرف.

وبهذا قال الثعالبي – رحمه الله – حيث قال " أثبته وخلقه بالإيجاد " [٥]

ومن عطايا الله – ﷻ– لهم أيضاً: " وَأَيَّدَهُم " أي قوّاهم [٦]

" بِرُوحٍ مِّنْهُ " قال ابن عباس – رضي الله عنهما – " نصرهم على عدوهم، وسمى تلك النصرة روحاً لأن بها يحيا أمرهم " [٧]

---

١ – الكهف ٢٨

٢ – الحجة للقراء السبعة لأبي علي الفارسي جـ ٤ ص ٣٦ ط دار الكتب العلمية – بيروت.

٣ – مفاتيح الغيب جـ ١٥ ص ٤٦٢

٤ – مفاتيح الغيب جـ ١٥ ص ٤٦٢

٥ – الجواهر الحسان للثعالبي جـ ٣ ص ٣١٣ ط دار الكتب العلمية – بيروت.

٦ – مجاز القرآن لأبي عبيدة جـ ٢ ص ٢٥٥

٧ – مفاتيح الغيب للرازي جـ ١٥ ص ٤٦٢

وقال الزجاج – رحمه الله –: قوَّاهم بنور الإيمان وبإحياء الإيمان، ودليل ذلك قوله" وَكَذَٰلِكَ أَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡكَ رُوحٗا مِّنۡ أَمۡرِنَاۚ مَا كُنتَ تَدۡرِي مَا ٱلۡكِتَٰبُ وَلَا ٱلۡإِيمَٰنُ وَلَٰكِن جَعَلۡنَٰهُ نُورٗا نَّهۡدِي بِهِۦ مَن نَّشَآءُ مِنۡ عِبَادِنَا " [١] فكذلك " وَأَيَّدَهُم بِرُوحٖ مِّنۡهُ " [٢]

ومن عطايا الله – ﷻ – لهم أيضاً:" وَيُدۡخِلُهُمۡ جَنَّٰتٖ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا "

يقول الألوسي – رحمه الله – " وَيُدۡخِلُهُمۡ " بيان لآثار رحمته تعالى الأخروية إثر بيان ألطافه سبحانه الدنيوية أي ويدخلهم في الآخرة " جَنَّٰتٖ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا " [٣]

أي تجري من تحت أشجارها الأنهار.

قوله " رَضِيَ ٱللَّهُ عَنۡهُمۡ وَرَضُواْ عَنۡهُ "

يقول الألوسي – رحمه الله – " رَضِيَ ٱللَّهُ عَنۡهُمۡ " استئناف جار مجرى التعليل لما أفاض سبحانه عليهم من آثار رحمته – ﷻ – العاجلة والآجلة " وَرَضُواْ عَنۡهُ " بيان لابتهاجهم بما أوتوه عاجلاً وآجلاً . [٤] انتهى .

ومما جاء في ذلك عَنْ أَبِي سَعِيدٍ الْخُدْرِيِّ – ﷺ – قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ – ﷺ – إِنَّ اللَّهَ – تَبَارَكَ وَتَعَالَى – يَقُولُ لِأَهْلِ الْجَنَّةِ: يَا أَهْلَ الْجَنَّةِ، فَيَقُولُونَ: لَبَّيْكَ رَبَّنَا وَسَعْدَيْكَ،

---

١ – الشورى ٥٢

٢ – معاني القرآن للزجاج جـ ٥ ص ١٤٢

٣ – روح المعاني جـ ٢٩، مجلد ١٥ ص ٥٢

٤ – روح المعاني جـ ٢٩، مجلد ١٥ ص ٥٢

فَيَقُولُ: هَلْ رَضِيتُمْ ؟ فَيَقُولُونَ: وَمَا لَنَا لَا نَرْضَى وَقَدْ أَعْطَيْتَنَا مَا لَمْ تُعْطِ أَحَدًا مِنْ خَلْقِكَ، فَيَقُولُ: أَنَا أُعْطِيكُمْ أَفْضَلَ مِنْ ذَلِكَ، قَالُوا يَا رَبِّ وَأَيُّ شَيْءٍ أَفْضَلُ مِنْ ذَلِكَ ؟ فَيَقُولُ أُحِلُّ عَلَيْكُمْ رِضْوَانِي فَلَا أَسْخَطُ عَلَيْكُمْ بَعْدَهُ أَبَدًا.[١]

قوله " أُوْلَٰٓئِكَ حِزْبُ ٱللَّهِۚ أَلَآ إِنَّ حِزْبَ ٱللَّهِ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ " مدح لهم في مقابلة ذم الكافرين بقوله " ٱسْتَحْوَذَ عَلَيْهِمُ ٱلشَّيْطَٰنُ فَأَنسَىٰهُمْ ذِكْرَ ٱللَّهِۚ أُوْلَٰٓئِكَ حِزْبُ ٱلشَّيْطَٰنِۚ أَلَآ إِنَّ حِزْبَ ٱلشَّيْطَٰنِ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ " [٢]

وهنا جاءت المقابلة بين كون الكافرين حزب الشيطان والحكم عليهم بالخسران ، وبين كون المؤمنين حزب الله والحكم لهم بالفلاح.

نسأل الله – ﷻ– أن يجعلنا من حزبه المفلحين

وصلى الله على نبيّنا محمدٍ وعلى آله وصحبه وسلم.

---

١ – رواه البخاري في كتاب: الرقاق، باب: صِفَةِ الْجَنَّةِ وَالنَّارِ. انظر فتح الباري جـ ١١ ص ٤٢٣ حديث رقم ٦٥٤٩

٢ – المجادلة ١٩

خاتمة البحث

الحمد لله الذي بحمده تتمُّ الصالحات وتُقْبَلُ الطاعات وتُـغْـفَـرُ السيئات وأصلي وأسلم على خير الخلق ونبي الحق سيدنا محمدٍ - ﷺ- وعلى آله وأصحابه ومن اهتدى بهديهم وسار على نهجهم بإحسان إلى يوم الدين ٠

وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له وأشهد أن محمداً عبده ورسوله٠

وبعد

فإنني أرجو من الله - ﷻ- أن أكون قد وُفِقتُ في هذا العرض لتفسير سورة المجادلة، وهذا ما وفقني الله - ﷻ- إليه، وسأعرض موجزاً لأهم نتائج هذا البحث فيما يلي:

نتائج البحث:

في هذا العرض لتفسير سورة المجادلة مما نقلته من أقوال العلماء وما فتح الله - ﷻ- به عليَّ من اجتهاد على قدر علمي وطاقتي أذكر بعضاً من نتائج البحث في تفسير هذه السورة الكريمة، فأقول وبالله التوفيق:

١- أن السورة الكريمة بما أنها مدنية فقد اشتملت على بيان القواعد الأساسية التي تهتم بإصلاح حال المجتمع الإسلامي من الناحية التشريعية، وتلك ميزة ميَّز الله - ﷻ - بها السور المدنية، ذلك أن التشريع يستلزم دولة قوية يأمن فيها المسلمون على أنفسهم ويظهرون فيه التزامهم بالجانب التشريعي في الإسلام، وهذا أمرٌ لم يكن متوفراً لهم في مكة.

٢- إن الاهتمام بالجانب الأسري في آيات السورة الكريمة يأتي في إطار الاهتمام باللبنة الأولى لبناء المجتمع الإسلامي، فصلاحها من صلاحه وفسادها وتفككها يؤدي إلى إفساده وتفكيكه.

٣- أن السورة الكريمة تحدثت عن المنافقين وهي مدنية لأن النفاق ظهر في المدينة وزاد خطره، لذا اهتمت السورة ببيان مواقف المنافقين تحذيراً للمؤمنين من خطرهم على المجتمع الإسلامي الناشيء.

٤- أن المؤمن لا يهادن كافراً ولو كان من أقرب الناس إليه، وتلك صفة المؤمنين بالله - ﷻ - حقاً.

وأخيراً فإنني أرجو من كل مُطَّلِعٍ على هذا البحث أن يلتمس لي العذرَ إن وجد في عملي هذا تقصيراً أو خطأً فإن الكمال لله - ﷻ- وحده .

فإن أكن قد وُفِقتُ في عملي هذا فبتوفيقٍ من الله - ﷻ- " وَمَا تَوْفِيقِيٓ إِلَّا بِٱللَّهِ ۚ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ "[1]

وإن أكن قد أخطأتُ فإنني أستغفر الله العظيم - الذي لا يتعاظمه ذنب - من كل خطأ أخطأته أو زللٍ زللته .

﴿ لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا ۚ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا ٱكْتَسَبَتْ ۗ رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذْنَآ إِن نَّسِينَآ أَوْ أَخْطَأْنَا ۚ رَبَّنَا وَلَا تَحْمِلْ عَلَيْنَآ إِصْرًا كَمَا حَمَلْتَهُۥ عَلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِنَا ۚ رَبَّنَا وَلَا تُحَمِّلْنَا مَا لَا طَاقَةَ لَنَا بِهِۦ ۖ وَٱعْفُ عَنَّا وَٱغْفِرْ لَنَا وَٱرْحَمْنَآ ۚ أَنتَ مَوْلَىٰنَا فَٱنصُرْنَا عَلَى ٱلْقَوْمِ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴾[2]

تمَّ بحمد الله وفضله

---

١ - سورة هود آية ٨٨

٢ - سورة البقرة آية ٢٨٦

قائمة المراجع

أولاً:- القرآن الكريم جلَّ من أنزله .

ثانياً:- مراجع التفسير وعلوم القرآن .

١- إتحاف فضلاء البشر في القراءات الأربعة عشر للشيخ / أحمد بن محمد البنا ١١١٧ هـ ط عالم الكتب – بيروت ط أولى ١٤٠٧ ه – ١٩٨٧حققه وقدم له الدكتور شعبان محمد إسماعيل

٢- الإتقان في علوم القرآن لأبي الفضل جلال الدين عبد الرحمن السيوطي ط دار الكتب العلمية – بيروت.

٣- إرشاد العقل السليم إلى مزايا القرآن الكريم لمحمد بن مصطفى أبي السعود العمادي ٩٨٢ه ط مكتبة الرياض الحديثة تحقيق /عبد القادر أحمد عطا.

٤- أسباب النزول لأبي الحسن علي بن أحمد الواحدي النيسابوري تحقيق / أيمن صالح سفيان ط دار الحديث – القاهرة ط ثالثة ١٤١٦ هـ ١٩٩٦ م

٥- إعراب القرآن لأبي جعفر أحمد بن محمد بن إسماعيل النحاس ٣٣٨ ه ط دار المعرفة – بيروت ط أولى ١٤٢٩ ه – ٢٠٠٨ م

٦- البحر المحيط لمحمد بن يوسف الشهير بأبي حيان الأندلسي ط دار الكتب العلمية – بيروت دراسة وتحقيق وتعليق الشيخ / عادل أحمد عبد الموجود – الشيخ / على محمد معوض ط أولى ١٤١٣ه – ١٩٩٣ م

٧- البرهان في ترتيب سور القرآن لأبي جعفر أحمد بن إبراهيم بن الزبير الغرناطي المتوفى ٧٠٨ هـ ص٥٥ ط وزارة الأوقاف والشئون الإسلامية المغربية تحقيق / محمد شعباني ط ١٤١٠هـ ١٩٩٠ م

٨- البرهان في تناسب سور القرآن لأبي جعفر أحمد بن إبراهيم بن الزبير الغرناطي تقديم وتحقيق د/ سعيد بن جمعة الفلاح ط دار ابن الجوزي – السعودية ط أولى ١٤٢٨ هـ

٩- البرهان في علوم القرآن للإمام لمحمد بن عبد الله الزركشي تحقيق / محمد أبو الفضل إبراهيم ط مكتبة دار التراث.

١٠- بصائر ذوي التمييز في لطائف الكتاب العزيز لمجد الدين يعقوب الفيروزآبادي" بصيرة فى " قد سمع " تحقيق / محمد علي النجار ط وزارة الأوقاف المصرية - المجلس الأعلى للشئون الإسلامية - لجنة إحياء التراث العربي ط ثالثة ١٤١٦ هـ - ١٩٩٦ م

١١- البيان في عدد آي القرآن لأبي عمرو الداني الأندلسي ٤٤٤ هـ ط مركز المخطوطات والتراث والوثائق - الكويت ط أولى ١٤١٤ هـ ١٩٩٤ م تحقيق د/ غانم قدوري الحمد.

١٢- التحرير والتنوير للطاهر بن عاشور ط الدار التونسية للطبع والنشر ٠

١٣- تفسير القرآن العظيم لأبي الفداء إسماعيل بن كثير ٠ ط دار الحديث ط ثانية ١٤١٠ هـ-١٩٩٠ م

١٤- تفسير القرآن العظيم مسنداً عن رسول الله - ﷺ - والصحابة والتابعين للحافظ عبد الرحمن بن أبي حاتم ط المكتبة العصرية - بيروت ط ثانية ١٤١٩ هـ ١٩٩٩ م تحقيق / أسعد محمد الطيب ٠

١٥- تفسير آيات الأحكام للسايس ط مكتبة الصفا

١٦- تلخيص العبارات بلطيف الإشارات في القراءات السبع لأبي علي الحسن بن خلف بن بَـلّـيمة ٤٢٨- ٥١٤ ه ط دار القبلة للثقافة الإسلامية - جدة، مؤسسة علوم القرآن - بيروت، تحقيق / سُبيع حمزة ط أولى ١٤٠٩ هـ - ١٩٨٨ م

١٧- جامع بيان عن تأويل آي القرآن للإمام محمد بن جعفر بن جرير الطبري ضبط وتوثيق وتخريج / صدقي جميل العطار ط دار الفكر - بيروت ط ١٤١٥ هـ ١٩٩٥ م ٠

١٨-الجامع لأحكام القرآن لأبي عبد الله محمد بن أحمد القرطبي راجعه وضبطه وعلّق عليه د/ محمد إبراهيم الحفناوي خرّج أحاديثه د/ محمود حامد عثمان ط دار الحديث - القاهرة ط ثانية ١٤١٦ هـ ١٩٩٤ م ٠

١٩-الجواهر الحسان للثعالبي ط دار الكتب العلمية – بيروت.

٢٠-الحجة للقراء السبعة لأبي علي الحسن بن أحمد الفارسي ٣٧٧هـ، وضع حواشيه وعلق عليه /كامل مصطفى الهنداوي ط دار الكتب العلمية – بيروت ط أولى ١٤٢١ه – ٢٠٠١م

٢١-الدر المصون لأحمد بن يوسف المعروف بالسمين الحلبي ط دار القلم – دمشق تحقيق د/ أحمد محمد الخرّاط .

٢٢-روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني لأبي الفضل شهاب الدين محمود الألوسي ط دار الفكر – بيروت ٠ قرأه وصححه / محمد حسين العرب ط ١٤١٧ هـ ١٩٩٧ م ٠

٢٣-زاد المسير في علم التفسير لأبي الفرج جمال الدين عبد الرحمن بن علي بن محمد الجوزي ط المكتب الإسلامي ط رابعة ١٤٠٧ هـ – ١٩٨٧

٢٤-العمدة في غريب القرآن وتفسيره لأبي بكر محمد بن مكي بن طالب القيسي حققه وعلّق عليه وخرَّج نَصَّه د / يوسف عبد الرحمن المرعشلي ط مؤسسة الرسالة – بيروت ٠ ط ثانية ١٤٠٤ هـ ١٩٨٤ م

٢٥-في ظلال القرآن للأستاذ / سيد قطب ط دار الشروق الطبعة الثانية والثلاثون ١٤٢هـ – ٢٠٠٣ م

٢٦- الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل للإمام أبي القاسم جار الله محمود بن عمر بن محمد الزمخشري ط دار الكتب العلمية – بيروت ط أولى ١٤١٥ هـ ١٩٩٥ م

٢٧-لباب التأول في معاني التنزيل لعلي بن محمد الشهير بالخازن ط دار الكتب العلمية – بيروت ط أولى ١٤٢٥ هـ – ٢٠٠٤ م ضبطه وصححه / عبد السلام محمد علي شاهين

٢٨-اللباب في علوم الكتاب للإمام المفسر أبي حفص عمر بن عادل الدمشقي الحنبلي تحقيق وتعليق الشيخ / عادل أحمد عبد الموجود الشيخ / علي محمد عوض د/ محمد سعد رمضان د / محمد المتولي الدسوقي حرب ط دار الكتب العلمية – بيروت ط أولى ١٤١٩ هـ ١٩٩٨ م

٢٩-مجاز القرآن لأبي عبيدة مَعْمَر بن مثنى التيمي عارضه بأصوله وعلَّق عليه د / محمد فؤاد سركين ط مكتبة الخانجي – القاهرة ٠

٣٠-المحرَّر في أسباب النزول للدكتور / خالد بن سليمان ط دار ابن الجوزي –المملكة العربية السعودية – الطبعة الثالثة ١٤٣٣ هـ

٣١-مدارك التنزيل وحقائق التأويل لأبي البركات عبد الله بن أحمد النسفي ط مكتبة نزار مصطفى الباز تحقيق / سيد زكريا

٣٢- معاني القرآن لأبي الحسن سعيد بن مسعدة الأخفش الأوسط ٢١٥ ه ط مطبعة المدني ط أولى ١٤١١ه – ١٩٩٠ م تحقيق د / هدى محمود قراعة.

٣٣- معاني القرآن لأبي زكريا يحي بن زياد الفرّاء تحقيق ومراجعة / محمد على النجار ط دار السرور

٣٤- معاني القرآن وإعرابه لأبي إسحاق إبراهيم بن السّري الزجاج شرح وتحقيق د / عبد الجليل عبده شلبي ط عالم الكتب – بيروت ط أولى ١٤٠٨ هـ ١٩٨٨ م ٠

٣٥- معجم مفردات ألفظ القرآن للحسين بم محمد الراغب الأصفهاني تحقيق / نديم مرعشلي ط دار الفكر – بيروت ٠

٣٦- مفاتيح الغيب للإمام فخر الدين محمد بن عمر الرازي ط دار الفكر – بيروت

٣٧- الناسخ والمنسوخ للقاسم ابن سلامة ط مكتبة المتنبي – القاهرة.

٣٨- النشر في القراءات العشر للحافظ محمد بن محمد الدمشقي ابن الجزري أشرف على تصحيحه ومراجعته / علي محمد الضباع شيخ عموم المقاريء بالديار المصرية ط دار الكتب العلمية – بيروت ط ثالثة ١٤٢٧هـ – ٢٠٠٦م

٣٩- نظم الدرر لأبي الحسن إبراهيم بن عمر البقاعي ط دار الكتاب الإسلامي – القاهرة

٤٠- النكت والعيون للماوردي أبي الحسن علي بن محمد بن حبيب ط دار الكتب العلمية – بيروت ٠ راجعه وعلّق عليه / السيد بن عبد المقصود بن عبد الرحيم

ثالثاً:- كتب الحديث وعلومه:-

٤١- تحفة الأحوذي للحافظ محمد عبد الرحمن ابن عبد الرحيم المباركفوري ١٣٥٣ هـ بشرح جامع الترمذي ط دار الحديث - القاهرة ط أولى ١٤٢١ هـ ٢٠٠١ م خرَّج أحاديثه / عصام الصبابطي ٠

٤٢- تهذيب التهذيب للحافظ أحمد بن علي بن حجر العسقلاني ط دار الفكر - بيروت ط أولى ١٤١٥ هـ ١٩٩٥ م ضبطه وراجعه / صدقي جميل العطار

٤٣- الجامع المسند الصحيح من حديث رسول الله - ﷺ - وسننه وأيامه للحافظ محمد بن إسماعيل البخاري بشرح الحافظ أحمد بن علي بن حجر العسقلاني حققه / محب الدين الخطيب رقَّمَ كتبه وأبوابه وأحاديثه / محمد فؤاد عبد الباقي ط المكتبة السلفية ٠ ط ثالثة ١٤٠٧ هـ

٤٤- المعجم الكبير للحافظ أبي القاسم سليمان بن أحمد الطبراني تحقيق حمدي عبد المجيد ط مكتبة ابن تيمية

٤٥- زاد المعاد في هدي خير العباد لابن القيم ط مؤسسة الرسالة ط ثالثة ١٤١٨ه - ١٩٩٨ م حقق نصوصه وخرج أحاديثه شعيب الأرنؤوط - عبد القادر الأرنؤوط

٤٦- سنن أبي داود للحافظ سليمان بن الأشعث أبو داود السجستاني تحقيق / صدقي محمد جميل ط دار الفكر - بيروت ط ثالثة ١٤٢٠ هـ ١٩٩٩ م

٤٧- سنن الحافظ أبي عبد الله محمد بن يزيد القزويني ابن ماجة ٢٧٥ هـ ط دار إحياء الكتب العربية تحقيق وتعليق / محمد فؤاد عبد الباقي ٠

٤٨- سنن النسائي المسمى بـ (المُجْتَبى) لأحمد بن شعيب النسائي بشرح جلال الدين السيوطي وحاشية السندي محمد بن عبد الهادي ط دار الفكر - بيروت ط ١٤١٩ هـ ١٩٩٩ م

٤٩- صحيح مسلم بن الحجاج القشيري بشرح يحي بن شرف النووي حققه وفهرسه / عصام الصبابطي، حازم محمد، عماد عامر ط دار الحديث - القاهرة ٠

٥٠- المستدرك للحافظ محمد بن عبد الله الحاكم، وبهامشه التلخيص للحافظ محمد بن أحمد الذهبي ط دار الكتب العلمية - بيروت ط ثانية ١٤٢٢ هـ - ٢٠٠٢ م

٥١- الموطأ للإمام مالك بن أنس، صححه ورقمه وأخرج أحاديثه وعلق عليه / محمد فؤاد عبد الباقي ط دار إحياء الكتب العربية.

٥٢- النهاية في غريب الحديث والأثر لمجد الدين أبي السعادات المبارك بن محمد الجزري ابن الأثير ٦٠٦ هـ ط المكتبة الإسلامية – تحقيق طاهر أحمد الزاوي – محمود محمد الطناجي.

٥٣- مجمع الزوائد ومنبع الفوائد للحافظ علي بن أبي بكر الهيثمي ط دار الكتب العلمية – بيروت ط أولى ١٤٢٢ ه – ٢٠٠١ م تحقيق / محمد عبد القادر عطا.

رابعاً:- كتب الفقه .

٥٤- أحكام القرآن لأبي بكر أحمد بن علي الجصاص ضبط نصه وخرَّج آياته / عبد السلام محمد علي شاهين ط دار الكتب العلمية – بيروت .

٥٥- أحكام القرآن لأبي بكر محمد بن عبد الله المعروف بابن العربي ط دار الكتب العلمية – بيروت ط ثالثة ١٤٢٤ هـ – ٢٠٠٣ م راجع أصوله وخرَّج أحاديثه وعلَّق عليه / محمد عبد القادر عطا.

٥٦- المغني لأبي محمد بن عبد الله المقدسي وبهامشه الشرح الكبير لشمس الدين عبد الرحمن بن محمد بن قدامة المقدسي ط دار الغد العربي ط ١٤١٤ هـ ١٩٩٤ م

٥٧- الموافقات للشاطبي باب: الأدلة على التفصيل – المسألة الثامنة ٦٩٨ ط دار الكتب العلمية بيروت – ط أولى١٤٢٥ هـ – ٢٠٠٤ م، شرح وتخريج أحاديث الشيخ / عبد الله دراز، وضع تراجمه محمد عبد الله دراز، فهرسة موضوعات / عبد السلام عبد الشافي

خامساً:- كتب السيرة والتاريخ .

٥٨- الاستيعاب في معرفة الأصحاب لأبي عمر يوسف بن عبد الله بن محمد بن عبد البر القرطبي تحقيق وتعليق الشيخ / علي محمد معوض الشيخ / عادل أحمد عبد الموجود ط دار الكتب العلمية – بيروت ط أولى ١٤١٥ هـ ١٩٩٥ م

٥٩- الإصابة في تمييز الصحابة لابن حجر تحقيق الدكتور / عبد الله بن عبد المحسن التركي بالتعاون مع مركز البحوث والدراسات العربية والإسلامية ط أولى ١٤٢٩ هـ ٢٠٠٨ م

٦٠- حسن المحاضرة في أخبار مصر والقاهرة لجلال الدين السيوطي وضع حواشيه / خليل المنصور ط دار الكتب العلمية – بيروت ط أولى ١٤١٨ هـ ١٩٩٧ م

سادساً:- معاجم اللغة والإعراب والشِّعر.

٦١- أساس البلاغة للعلاّمة جار الله محمود بن عمر الزمخشري ط دار الفكر – بيروت ط ١٤١٥ هـ ١٩٩٤ م

٦٢- الجدول في إعراب القرآن وصرفه وبيانه تصنيف / محمود صافي ط دار الرشيد – دمشق، بيروت ط رابعة ١٤١٨ هـ ١٩٩٨ م

٦٣- الجنى الداني في حروف المعاني للحسن بن قاسم المُرادي ط دار الكتب العلمية – بيروت تحقيق د / فخر الدين قباوة – الأستاذ / محمد نديم فاضل ط أولى ١٤١٣ ه – ١٩٩٢ م

٦٤- ديوان امريء القيس ط دار الجيل – بيروت شرح د / حنا الفاخوري

٦٥- ديوان جرير ط دار الكتاب اللبناني – بيروت ط أولى ١٩٨٢ م ضبط معانيه وشروحه وأكملها / إيليا الحاوي

٦٦-شرح الرضي على الكافية ط منشورات جامعة قان يونس – بنغازي ط ثانية ١٩٩٦ م

٦٧- شرح المقدمة الكافية في علم الإعراب لجمال الدين أبو عمرو عثمان بن الحاجب دراسة وتحقيق / جمال عبد العاطي مخيمرط مكتبة نزار مصطفى الباز – المملكة العربية السعودية ط أولى ١٤١٨ هـ ١٩٩٧ م

٦٨- لسان العرب لأبي الفضل جمال الدين محمد بن منظور الإفريقي ط دار الفكر – بيروت ط ثالثة ١٤١٤ هـ ١٩٩٤ م

سابعاً:- كتب تراجم الأعلام .

٦٩- الأنساب لأبي سعد عبد الكريم بن محمد السمعاني ط دار الكتب العلمية – بيروت ط أولى ١٤١٩ هـ ١٩٩٩ م وضع حواشيه/محمد عبد القادر عطا

٧٠- تذكرة الحفاظ للحافظ شمس الدين محمد بن أحمد الذهبي ط دار الكتب العلمية – بيروت

٧١- الدرر الكامنة في أعيان المائة الثامنة لابن حجر العسقلاني ط دار إحياء التراث العربي – بيروت

٧٢- رجال المعلقات العشر تأليف / مصطفى الغلاييني أستاذ اللغة العربية في المكتب السلطاني والكلية العثمانية في بيروت ط دار الكتاب الإسلامي ط ثالثة ١٤١٤ هـ

٧٣- سير أعلام النبلاء لمحمد بن أحمد الذهبي ط مؤسسة الرسالة ٠

٧٤- شذرات الذهب في أخبار من ذهب لابن العماد ط دار إحياء التراث العربي

٧٥- طبقات المفسرين للحافظ جلال الدين عبد الرحمن بن أبي بكر السيوطي ٩١١ هـ ط دار الكتب العلمية – بيروت ط أولى ١٤٠٣ هـ ١٩٨٣ م ٠

٧٦- طبقات المفسرين للحافظ شمس الدين محمد بن علي الداوودي ٩٤٥ هـ ط دار الكتب العلمية – بيروت

٧٧- طبقات النحويين واللغويين لأبي بكر محمد بن الحسين الزبيدي الأندلسي ط دار المعارف ط ثانية تحقيق / محمد أبو الفضل إبراهيم

٧٨- غاية النهاية في طبقات القراء لشمس الدين أبي الخير محمد بن محمد بن الجزري ٨٣٣ هـ ط دار الكتب العلمية – بيروت ط أولى ١٣٥٢ هـ ١٩٣٣ م

٧٩- فوات الوفيات وأنباء أبناء الزمان لمحمد بن شاكر الكتبي ط دار الشروق

٨٠- معجم الشعراء من العصر الجاهلي حتى سنة ٢٠٠٢ م تأليف / كامل سلمان الجبوري ط دار الكتب العلمية – بيروت ط أولى ١٤٢٤ هـ ٢٠٠٣ م

٨١- معجم المؤلفين تأليف / عمر رضا كحالة ط دار إحياء التراث العربي

٨٢- معرفة القراء الكبار على الطبقات والأعصار لشمس الدين الذهبي ط مؤسسة الرسالة ط ثانية ١٤٠٨ هـ ١٩٨٨ م تحقيق / بشار عوّاد معروف، شعيب الأرناؤط، صالح مهدي عباس ٠

٨٣- نزهة الألباء في طبقات الأدباء لأبي البركات كمال الدين عبد الرحمن بن محمد الأنباري ط دار الفكر العربي – القاهرة ط ١٤١٨ هـ ١٩٩٨ م تحقيق / محمد أبو الفضل إبراهيم

٨٤- وفيات الأعيان لأبي العباس شمس الدين أحمد بن محمد بن أبي بكر بن خَلِّكان ط دار الثقافة – بيروت ٠